



الطبعة العربية الحديثة
 مترجم من
 اللغة الفرنسية
 بقلم
 أحمد خالد توفيق

قصة : سارك توين
 ترجمة وإعداد :
 د. أحمد خالد توفيق

وصية الثلاثين ألف دولار

المؤلف

تكامنا يشيء من
التفصيل عن (مارك توين)
في الكتيب رقم ١٨ من
سلسلة (فانتازيا) ،
وأغلب الظن أن من
يقرءون الكتيب الحالي
قرءوا الكتيب الآخر ؛ لكننا



- من أجل من جاءوا متأخرين - نحكى بعض الأشياء
عن أهم وأعمق وأظرف أدياء أمريكا .. وهذا الكلام ليس
من عندي ولكن سبق أن قاله الأديب الأمريكي العظيم
(إرنست هيمنجواي) -

(صمويل لانجهورن كليمنس) هو الاسم الأصلي له ..
ولد في ولاية (ميسوري) في نوفمبر عام ١٨٣٥ ،
وسرعان ما انتقلت أسرته إلى قرية (هاتيبيل) التي
خلدها في الأدب الأمريكي ، وتوفي أبوه وهو في سن

العاشرة ، ليبدأ الصبى كفاحه المضنى من أجل البقاء ، وهو الكفاح الذى رسم كل خط فى أديه فيما بعد .. وأكثر شخصيات كتبه مارست الوجود فعلاً وقابنها فى مشوار حياته الشاق ..

عمل الصبى عامل طباعة ، ثم استجاب لحلم قديم طالما راوده ، هو أن يعمل على قارب بخارى فى نهر (المسيبى) ، وكانت له مع النهر قصة حب خلدها فى كتابه (الحياة على المسيبى) ..

بعد هذا حارب فى أثناء الحرب الأهلية عام ١٨٦١ ، وهى بدورها خبرة لم ينسها قط : « الحرب هى قتل مجموعة من الأعراب الذين لا تشعر نحوهم بأى عداة ، ولو قابلتهم فى ظروف أخرى لقدمت لهم العون أو طلبته منهم .. »

بعد انتهاء الحرب عمل فى الصحافة فى جريدة محلية بـ (فرجينيا) ، واتخذ اسم (مارك توين) وهو مصطلح بحرى معناه (علم على اثنين) يعود لأيام الملاحة فى (المسيبى) ..

كانت حياة (مارك توين) سلسلة من المصائب ،

فهو انطلق المشاعب الذى لا يقول إلا ما يريد مهتماً كان قاسياً أو مريراً ، لذا ظفر بعداء الجميع .. وهو الاقتصادى الفاشل الذى يطارده الإفلاس فى كل لحظة ، وهو البائس الذى رأى أخاه يحترق فوق سفينة فى البحر ، حتى إن شعره شاب فى دقائق بعدها .. ولم تكن هذه آخر مأسى حياته ..

لقد مات ابنه الأول ، وتوفيت أعز بناته ، وتوفيت زوجته ..

كان لهذا أثره العجيب فى أديه : نقد آرداد سخريه .. سخريه مريرة قاسية ، ولسان يصعب إسكاته مهتماً حاولت ، وبرغم هذا كله كان (توين) يحتفظ بالأراء الأكثر صراحة وقسوة لنفسه ، وكان يكتب فى كل موضوع كتابين : كتاباً يخفيه فى درجه ، وكتاباً يعرضه على التام ..

وكانت شعبية (توين) تتزايد حتى إنه من الكتاب القلائل الذين كانوا يقدمون حفلات قراءة جماعية ، يشترى الناس التذاكر لها ، فقط كي يجلسوا فى مسرح كبير ليصفوا إلى (توين) وهو يتلو ما كتبه ..

أهم كتب (مارك توين) :

- الضفدع الوثاب من مقاطعة (كاليفيراس) (١٨٦٥) .
- أرباء بالخارج (١٨٦٩) .
- مغامرات توم صوير (١٨٧٦) .
- متشرذ بالخارج (١٨٨٠) .
- الأمير والفقير (١٨٨٢) .
- الحياة على المسيسي (١٨٨٣) .
- شمالي في بلاط الملك آرثر (١٨٨٩) .
- مغامرات هاكليري فان (١٨٨٤) .
- نحو خط الاستواء (١٨٩٧) .
- الرجل الذي أفسد (هادليبرج) (١٨٩٩) .
- صلاة الجندي (١٩٠٥) .

المصادر :

- ديل كارنيجي : الخالدون . مطبوعات كتابي (٣) .
 - فؤاد دواره : هكذا كتبوا . ائدار المصرية للتأليف والترجمة .
- يونيو ١٩٦٦ .

إن قصصه هي مرآة صادقة شفافة للمجتمع الأمريكي .. شفافة إلى درجة أنها صارت عالمية ، وغدا الناس جميعاً يستمتعون بحق بأدب هذا الأديب العظيم ، مهما تباينت ثقافتهم وألسنتهم ..

وفي عام ١٩١٠ توفي (توين) ، بعد ما رأى - في نفس الليلة - مذنب (هالي) يشق السماء ، وهو ذات المذنب الذي شق السماء ليلة ولادته ، وبشكل ما كان (توين) يتوقع ويرجو أن يمتد به الأجل حتى يراه مرة ثانية وأخيرة !

د . / أحمد خالد

وصية الثلاثين ألف دولار ..

الفصل الأول

كانت (ليك سايد) مدينة صغيرة لطيفة ، بها خمسة أو ستة آلاف مواطن ، وبالنسبة للمدن الأخرى فى الغرب كانت جميلة ..

كانت بها كنيسة تتسع لخمسة وثلاثين ألف شخص كما هو معتاد فى أقصى الغرب ، حيث الجميع متدين ، وحيث تكثر الجماعات البروتستانتية ..

ولم يكن هناك فارق طبقي فى (ليك سايد) ، وعلى كل حال لم يكن أحد يعترف به .. كل واحد يعرف كل واحد وكلبه ، والصدقة الاجتماعية هى أساس العلاقات هنا ..

كان (صلاح الدين فوستر) يملك متجرًا ، وهو أعلى

الرجال دخلًا بالنسبة لمهنته . عمره خمسة وثلاثون عامًا وقد عمل فى هذا المتجر أربعة عشر عامًا ، وكان دخله حين تزوج أربعمائة دولار فى السنة ، ثم نما دخله بمقدار مائة دولار فى العام لمدة أربع سنوات ، ومن وقتها ظل راتبه ثمانمائة دولار فى العام ، وهو رقم جميل بحق ، وكان الجميع يعتقد أنه يستحقه .

أما زوجته الوفية (إكترا) فكانت رفيقة طيبة ، إلا أنها - مثلى - حاملة غارقة فى الرومانسية . وبمجرد أن تزوجت ابتاعت فدانًا عند أطراف المدينة دفعت ثمنه خمسة وعشرين دولارًا هى كل ثروتها ، وكان هذا برغم أنها كانت طفلة فى التاسعة عشرة من عمرها وقتها ..

وفى هذا الفدان زرعت حديقة بالخضر ، وصارت الحديقة تقدم ربخًا مائة فى المائة كل عام . ومن راتب زوجها أودعت (إكترا) ثلاثين دولارًا فى المصرف أول عام ، ثم ستين فى العام التالى ، ومائة فى الثالث ، ومائة وخمسين فى الرابع ..

وفي الليل كانت الأميرة تجتمع في غرفة المعيشة
الهادئة الدافئة ، حيث يتخلص أفرادها من هموم العالم ،
ويعيشون في عالم الكتب الرومانسي ويحلمون .. يمرحون
مع الملوك والأمراء والسورديات ، والأماكن النبيلة ،
والقلاع الغامضة العتيقة ..

* * *

وجاء طفلان فزادت النفقات ، إلا أن (إكترا) ظلت
قادرة على ادخار مائتين من الدولارات كل عام من دخل
زوجها ، وبعد سبع سنوات استطاعت أن تبني منزلاً
جميلاً مريحاً بألفي دولار في وسط المزرعة ، ودفعت
نصف المال ..

وبعد سبع سنوات أخرى انتهت من الديون ، وصار
لها في المصرف مئات الدولارات التي تنمو باستمرار ..
وكان طفلها ينمو سناً وجمالاً ، وكانت امرأة سعيدة
بزوجها وطفليها ، وعند هذه النقطة تبدأ قصتنا ..

الفتاة الصغرى للزوجين هي (كليمتسترا) - ويدلونها
باسم (كليتي) - في الحادية عشرة من عمرها ، أما
الآخري فـ (جويندولين) التي يدلونها باسم (جوين) ،
وكانت في الثالثة عشرة من عمرها ، وهي فتاة طيبة
مليحة ..

كانت أسرة متعاطفة ، وكل من أفرادها اسم تدليل ،
فمثلاً (صلاح الدين) كانوا يدلونه (سالي) ، و (إكترا)
كانوا يدلونها (إيك) .

الفصل الثاني

الآن جاءتهم أخبار عظيمة .. أخبار مذهلة ..

جاءتهم من الضيعة المجاورة حيث يعيش القريب الوحيد للأسرة .. كان عمًا مبهمًا أو ابن عم له (سالى) يحمل اسم (تلبيرى فوستر) .. فى السبعين من عمره .. عزب .. اشتهر بجفاف الطبع والحدة ..

وقد حاول (سالى) أن يرسل له خطابًا مرة ، لكنه قرر ألا يكرر هذا الخطأ ثانية ..

فى هذه المرة كتب (تلبيرى) له (سالى) يقول له إنه سيموت قريبًا ، وسوف يترك له فى وصيته ثلاثين ألف دولار نقدًا .. ليس لأنه يحبه ، ولكن لأن هذا المال سبب أكثر متاعبه ، وهو يريد أن يتأكد أن المال سيواصل مهمته الخبيثة ..

إن الإرث موجود فى الوصية وسيتم دفع المبلغ لكن بشرط : على (سالى) أن يثبت لمنفذى الوصية

أنه لم يعلن الخبر لأحد ، ولم يتسائل عن حالة المحتضر ومدى دنوه من الخلاص النهائى ، ولم يحضر الجنازة ..

فما إن شفيت (أليك) من الصدمة التى سببها لها الخطاب ، حتى أرسلت إلى الضيعة التى يعيش فيها (تلبيرى) ، واشتركت فى الجريدة المحلية ..

وقرر (سالى) وزوجته ألا يذكر الأخبار العظيمة لأحد ، وإلا فإن أحدًا ما سينقل هذه الأخبار إلى قرأش المحتضر ، حيث يظهران فى صورة الجاحدين للجميل المتعجلين لموت الرجل ..

ولبقية اليوم ظل (سالى) يحدث أكبر فوضى فى متجره ، و (أليك) لم تستطع إبقاء ذهنها بعيدًا عن الأمر ، وكانت تتناول أبيض زهور أو كتابًا أو عصًا .. ثم سرعان ما تجد أنها نسيت ما كانت تتوى عمله بها .. كان كلا الزوجين يحلم ..

ثلاثون ألفًا من الدولارات !

طيلة اليوم ظنت موسيقًا هذه العبارة تتردد فى ذهن الزوجين .. منذ زواجهما حتى اليوم كانت (أليك) مقتصدة تمامًا ، وما كان (سالى) يعرف كيف ينفق مليماً على غير الضروريات ..



طيلة هذه الساعة كان قلمان مشغولين بالكتابة ، يدوران مئات
الخطط والتصورات ..

لكن ثلاثين ألفاً من الدولارات ! مبلغ ضخم .. مبلغ
يصعب استيعابه ..

وظلت (أليك) طيلة اليوم تفكر في كيفية استثمار
المبلغ ، أما (سالى) فكان يفكر في كيفية إنفاقه ..
وفي هذه الليلة ثم بطالعا كتبهما الرومانسية ،
ودخلت الطفلتان إلى الفراش مبكراً لأن أبويهما كانا
صامتين مملين إلى حد غريب .. وحتى قبيلات المساء
لم تحدث تأثيراً ، لأن الوالدين لم يشعرا بالقبيلات على
الإطلاق ، ومرت ساعة قبل أن يلاحظ أحدهما أن
الطفلتين دخلتا الفراش ..

طيلة هذه الساعة كان قلمان مشغولين بالكتابة ،
يدوران مئات الخطط والتصورات ..

كان (سالى) هو من حطم هذا الصمت ، حين قال
في ابتهاج .

- « أه ! سيكون هذا عظيماً يا (أليك) .. من أول
ألف سنحصل على عربة وحصان لرحلات الصيف ،
وبطانية للشقاء .. »

أجابت (أليك) في تصميم ورباطه جأثن :

- « ليس من رأس المال .. حتى لو كان المبلغ مليون دولار ! »
أصاب (سالى) الإحباط واختفى البريق من وجهه ،
فقال :

- « لقد عملنا بجهد طيلة حياتنا ، ومن الواجب أن .. »
يبدو أن لهجته المتضرعة أثرت فيها ، لأنها قالت
متلطفة :

- « لا يجب أن تنفق رأس المال يا عزيزى .. ليس هذا من الحكمة فى شيء .. يمكننا أن نعيش من عائد ادخاره .. »

- « حقاً أنت حكيمة .. سنعيش من الدخل .. »
- « ليس كله يا عزيزى .. يمكنك أن تنفق جزءاً من هذا الدخل .. أنت تفهم منطقي أليس كذلك ؟ »

- « بنى .. بنى .. لكن معنى هذا أن ننتظر ستة أشهر حتى ننفق أول أرباح تأتينا .. »
- « بل ربما أكثر من ستة أشهر .. »

- « نماذاً يا (أليك) ؟ إنهم يصرفون العائد كل ستة أشهر .. »

- « فى الاستثمار التقليدى نعم .. لكن ليس فى نوع الاستثمار الذى أفكر فيه من أجل عائد أكبر .. »
- « وما هو ؟ »

- « مناجم الفحم الجديدة .. سنضع الحد الأدنى ونحصل على ثلاثة أنصبة لكل واحد .. وخلال عام نظفر العشرة آلاف بثلاثين ألفاً .. إننى أعرف كل التفاصيل .. إنها منشورة هنا فى جريدة (سنسيناتى) .. »
صاح :

- « عشرة آلاف تجلب ثلاثين ألفاً ! قلنضع كل شيء ونحصل على تسعين .. سأشترك الآن ! »
لكن (أليك) أوقفته ، وذكرته بأن المال ليس لديهما بعد .. قال لها :

- « إن الرجل على حافة المائة ، ولا بد أنه يموت الآن .. أو ربما انتهت الامه فعلاً .. »
هزت رأسها فى ضيق وقالت :

- « كيف تتكلم بهذه الطريقة يا (سالى) ؟ إنها مشينة .. »

قبلها في حرارة نصف دستة من القبلات ، وجعلها
هذا أقل حصافة ، لذا - قبل أن تدرك الأمر - منحته
ألفى دولار آخرين ..

وجلس (سالى) في حماس يدون الأشياء التي يود
أن يشتريها في البداية .. عربة .. حصان .. كلب ..
قبة .. أسنان جديدة ..

أما هي فواصلت حساباتها .. كان عليها أن
تستثمر الثلاثين ألفا التي هي أرباح الفحم عن عام
واحد .. وبعد ما استثمرت المبلغ في القمح والنفط
صارت أرباحها ثمانين ألفا صافية ..

- « رياه ! أليس هذا رائعاً ؟ لقد قابلتنا الحظ أخيراً
بعد كل الكفاح الشاق .. »

وراضياً اتجه إلى الفراش ، ولحقت به .. كانا
محلقيين حتى إتهما نسيا الشمعة مشتعلة في الردهة ،
وتذكرها (سالى) بعد ما نزع ثيابه ، لكنه رأى أن
يتركها تذوب كلية ، فهما قادران على هذا الإسراف ،
لكن (أليك) أصرت على أن تطفئها ..

- « ألا يمكنك أن تتركي شخصاً يتكلم ؟ »

- « ولماذا تتكلم بهذه الطريقة الشنيعة ؟ كيف تحب
أن ترى الناس يتكلمون عنك هكذا ، بينما لم تبرد
جنتك بعد .. »

- « لا أظن أنني أحب هذا .. لكن هذا سيحدث
لو منحت الناس مالا لمجرد أن أؤذيهم به .. وعلى كل
حال دعينا من (تلبيري) هذا .. ماوجه اعتراضك
على استثمار الثلاثين ألفاً كلها في الفحم ؟ »

- « كل البيض في سلة واحدة .. هذا هو سبب
اعتراضي .. »

- ليكن .. وماذا تنوین عمله بالعشرين ألفاً الباقية ؟ »

- « لا داعي للعجلة .. سأبحث حولي جيداً لأعرف
ما أفعله بها .. »

- « إذن ما زال بوسعى أن أخذ ثلاثة آلاف من أرباح
العشرة ؟ »

كانت راضية راتقة البال ، لهذا أجرت حسبة في
ذهنها ، شعرت بأنها تبذير سفيه ، لكنها سمحت له
بألفى دولار على كل حال ..

وكان هذا تصرفاً موفقاً ، لأنها إذ عادت من
الردة وجدت فكرة طيبة يمكنها أن تجعل الثلاثين ألفاً
نصف مليون ..

* * *

الفصل الثالث

كانت الصحيفة التي اشتركت فيها (أليك) تدعى
(ساجامور الأسبوعية) ، وكان عليها أن تقطع
خمسمائة ميل من قرية (تلبيري) كي تصل إليهما
يوم السبت ، لأنها تصدر يوم الخميس ..

نقد جاءهما خطاب (تلبيري) يوم الجمعة متأخراً
بما لا يكفي أن تظهر وفاة الرجل في هذه الطبعة ،
لكن من الممكن أن تظهر في الطبعة التالية ..

لهذا انتظر آل (فوستر) أسبوعاً طويلاً ثقيلًا ،
وما كانا ليحتملان هذا الأسبوع لو لم يجد عقلاهما
شيئا يشردان فيه .. فكما رأينا كانت المرأة مشغولة
بتكديس المال ، والرجل كان ينفقه ..

في النهاية جاء السبت ، وجاءت صحيفة
(ساجامور) . وكانت زوجة الخوري تعمل عندهما
على سبيل الإحسان .. فلاحظت المرأة أن الزوجين

لا يصغيان لحرف مما تقول ، لذا أنصرفت شاعرة
بحيرة ومهانة ..

على الفور مزق (سالى) المغنّف ليخرج الصحيفة ،
وجرت عينا الزوجين عبر سطور صفحة الوفيات ..
يا لخيبة الأمل ! (تلبيرى) غير موجود ..

تماسكت (أليك) كالعادة ، وقالت بلهجة مليئة
بالتقوى :

- « فلنحمد الله فى تواضع .. لقد نجا الرجل .. »
قال (سالى) :

- « سحقاً للرجل المخادع ! أتمنى لو .. »

- « (سالى) ! هذا مشين .. »

قال فى غضب :

- « لا أهتم .. أنت كذلك تشعرين بالشئء ذاته ،
ولو لم تكونى طاهرة إلى هذا الحد المخجل لقلت ذات
الكلام بأمانة .. »

فى كبرياء جريحة قالت :

- « لا أدرى ما الذى يجعل الأمور غير كريمة
وغير عادلة كهذا .. لا يوجد شئء أكثر سمواً من
الظهر الخالد .. »

أحسن (سالى) بغصة حاول أن يخفيها ، كأنما
بوسعه أن يخدع تلك المرأة الخبيرة التى يحاول
خداعها :

- « لم أقصد شيئاً بهذا السوء يا (أليك) .. أعنى ..
قلت .. كنت أتكلم عن الأسلوب التقليدى فى إظهار
الإخلاص .. أنت تعرفين ما أعنيه .. إخلاص المتاجر
الذى نخدع به الزبائن .. حسن .. هلمى .. أنا لا أجد
الكلمات المناسبة ، لكنك تفهمين ، وتدرकिन أنه لا ضرر
هناك .. »

- « حسن .. لئننه الموضوع .. »

جفف العرق عن جبينه ، واعتذر لها :

- « ليكن .. أنا ضعيف فى هذه اللعبة ، وليس لى
الصبر الكافى .. »

ثم هدأ بعد ما اعترف بهزيمته ، فسامحته (أليك)
بعينها ، وفيما بعد ناقش الزوجان لغز اختفاء نعى

(تلبيري) من الجريدة .. وفي كل مرة كنا يصلان
إلى نفس النقطة ، وفي النهاية توصلنا إلى أن التفسير
الوحيد لعدم وجود نعي لـ (تلبيري) هو أن الرجل
- حتماً - مازال حياً ..

كان هذا محزناً .. وبالإضافة لهذا كان فيه شيء
غير عادل .. لكنه حدث ولا بد من قبوله ..

وحاول (سالي) يائساً أن يجعل زوجته تشاركه
الحزن ، لكنه فشل لأنها احتفظت برأيها لنفسها .. لم
تعتقد أن تجازف أبداً في هذا العالم أو سواه .. يجب
أن ينتظروا للأسبوع القادم ، لأن (تلبيري) قد تكاسل
عن أداء واجبه ..

واتهمكا في العمل بإخلاص قدر الاستطاعة ..

لم يعلما أن (تلبيري) قد كان عند كلمته حرفياً ..
لقد مات وفي الوقت المحدد .. مات منذ أربعة أيام واعتاد
الأمر .. مات بدقة .. مات قبل إصدار جريدة (ساجامور)
بوقت كاف ، لكن ما منعه من الظهور هو حادث ..
حادث ما كان ليحدث في جريدة كبرى لكنه يحدث
كثيراً في قرية بانسة قبل (ساجامور) .

كان رئيس التحرير قد تلقى هدية من عصير الفراولة
(الشليك) الباردين من مؤسسة (هوستتر) التجارية ،
من ثم تم إبعاد نعي (تلبيري) كي يجد رئيس التحرير
مكاناً ينشر فيه شكره العميق المحموم ..

وفي طريقه إلى لوح التجميع تبعثت حروف نعي
(تلبيري) ، وبالتالي لن يجد طريقه إلى الطبعات
التالية .. لقد ضاعت فرصته في النشر للأبد ..

فليرقد (تلبيري) في قبره .. إن نعيه لن يرى النور
حتى يوم الدين ..

★ ★ ★

جاءت ستة أشهر وولت ..

ومن حين لآخر كان (سالى) ينسى ، وتفتنت منه تلميحة أو أخرى إلى أنه يريد أن يعرف ، لكن زوجته كانت تردعه بقسوة ..

قرر أن يخاطر بهجمة أمامية ؛ أن يتنكر ويذهب لـ (ساجامور) كى يتشمم الأخبار ، إلا أن (أليك) وضعت قدمها فى الأمر ، وقالت :

- « فيم تفكر ؟ إننى مشغولة بك طيلة الوقت كطفل لإبقائك بعيدًا عن النار .. »

- « ولماذا ؟ أستطيع أن أذهب ولا يكتشف أمرى أحد .. أما متأكد .. »

- « (سالى فوستر) .. سيكون عليك أن تجرى بعض التحقيقات ، وتساءل .. سيكون هذا معلومًا لمنفذى الوصية على الفور .. »

لم يجد ما يقول فقالت :

- « الآن أبعد هذه الفكرة عن رأسك ولا تعيث بها ثانية .. إن (تلبيرى) قد أعد لك هذا الشرك .. ألا تفهم أن هذا شرك ؟

الفصل الرابع

مضت خمسة أسابيع مرهقة ، وكانت جريدة (ساجامور) تصل كل سبت لكن لم تحو أية نسخة منها خبر وفاة (تلبيرى) ، وهنا اتهارت أعصاب (سالى) وبامتعاض قال :

- « تبًا لأحشائه ! إنه خالد ! »

وبخته (أليك) بشدة ، وأضافت بوقار جليدى :

- كيف ستشعر لو أنك مت فجأة ، بعد ما تلفظ عبارة شنيعة كهذه ؟
بلا اهتمام أجاب :

- « سأشعر بأننى محظوظ لأننى لم أمت وهى محشورة فى حلقى ! »

قالها وفرّ مبتعدًا عن مرمى مدفعية زوجته ..

★ ★ ★

إتهم براقبونك وينتظرون ، ولسوف تصيبهم خيبة
الأمل ما دمت أنا من يتولى الأمر .. »
ثم أضافت :

- « لا تفقد صبرك .. إن أحوالنا المالية تزدهر
فلاداعي للعجلة .. وأنا لم أرتكب أى خطأ .. إن المال
يتقدس بالألوف ، وما من أسرة فى المنطقة تمك هذا
الثراء الفاحش .. احمد الله (تعالى) وكف عن القلق ..
فما كان بوسعنا أن نحقق كل هذا دون عونه العظيم ..
المشكلة معك هى أنك لا تستطيع أن تفتح فاك دون أن
تجعل المرء يرتجف فرقا .. إنك تجعلنى فى خوف مستمر
عليك وعيننا جميعا .. كنت فيما مضى لا أخاف الرعد ..
أما الآن »

وتحطم صوتها فراحت تبكى ، ولم تكمل عبارتها ..
مرق هذا المشهد (سالى) فأراحها بين ذراعيه ،
وسألتها العفو ، ووعداها بأن يكون أفضل ..

وكان جادا فى رغبته هذه ، لذا فكر فى الأمر
طويلا .. من السهل أن تعد بالاستقامة لكن من
الصعب أن تفعلها .. يجب أن يقوم بشيء أكيد ..

وبمبلغ باهظ من المال الذى كان يدخره شلنا مع
شلن وجد حلا ذكيا :

وضع على سقف البيت قضيبا واقيا من الصواعق !

* * *

ما أسهل اكتساب العادات ! وما أسرع ما نكتسبها !
العادات البسيطة والعادات التى تغيرنا بعمق .. لو صحونا
بالصدفة لينتين متتاليتين فى الثالثة صباحا ، فعلينا أن
ننقل .. لأن تكرار هذا مرة ثالثة سيجعله عادة ..

لكننا جميعا نعرف هذه الحقائق .. عادة بناء القلاع ..
عادة أحلام اليقظة .. لكم تصير ممتعة ، ولكم نعربد فى
متعتها ونضع فيها أرواحنا ، ونسلم أنفسنا لخيالاتها
الملحة القاهرة ، وسرعان ما تختلط حياة الأحلام بالحياة
الواقعية حتى لا نعرف أين نحن بالضبط ..

لقد اشتركت (أليك) فى جريدة مالية مختصة بالأسهم
تصدر من (شيكاغو) بها مؤشرات (وول ستريت) ،
وراحت تدرس هذه الأمور كما كانت تدرس الإنجيل
أيام الأحد ..

ونمت موهبتها التنبؤية بصورة لا تصدق ،
وزدادت خبرتها بالأسواق . وكان (سالى) فخوراً
بجراتها فى المضاربة وحذرها المتحفظ فى إجراء
الصفقات الخيالية ، فلم تفقد صوابها قط ..

ومرت أشهر صنعت فيها (أليك) ثروة خيالية
بسرعة لم تتخيلها قط ..

فى البداية استثمرا عشرة آلاف وهمية ، فعادت
لهما بعد عام وعلى ظهرها ثلاثمائة ألف تخيلية ..
وفقد آل (فوستر) القدرة على الكلام من الحبور ..

هنا قررت (أليك) بكثير من الذعر أن تستثمر
العشرين ألفاً الباقية من الوصية ، وراحت طيلة
الوقت تحشى أن يحدث انهيار فى السوق ، وأخيراً
أرسلت برقية تخيلية لسمسار البورصة التخلي تأمره
فيها بأن يبيع الأسهم .. وتم البيع فى نفس اليوم ..

وبدأ قلب (أليك) يزداد جراً ..

ولو نظرنا من خلال عيني هذين الحالين ، لرأينا
أن كوخهما الخشبي يختفى ويحل مكانه منزل قرميدى
ذو طابقين له سور حديدى ، وثرىا عملاقة تتدلى من

سقف البهو ، وسجادة المنزل تتحول إلى بساط
بلجيكى فاخر ، والتحف المهيبة فى كل مكان ..

ومن هذا الوقت كان قلق (أليك) يتزايد بسبب فواتير
الغاز ، فيجيبها (سالى) فى استهتار :

- « وماذا هناك ؟ يمكننا تحمل هذا الإسراف .. »

وقرر الزوجان أن يقيما حفلاً بمناسبة ثرائهما ،
لكن كيف يمكن شرح الأمر للفتاتين والجيران ؟ لا يمكن
أن يعننا للناس أنهما ثريان ..

بم يحتفلان إذن وليست هناك أعياد ميلاد خلال
ثلاثة أشهر ؟

فى النهاية وجد (سالى) فكرة عبقرية .. سيحتفلان
باكتشاف أمريكا !

إنها فكرة عظيمة ..

وقالت (أليك) فى إعجاب إنها ما كانت لتجد فكرة
كهذه ، لكن (سالى) - برغم ما بدا على ملامحه من
سرور - قال إن الأمر ليس بهذه الأهمية ، وأى شخص
آخر كان سيفكر فى الشيء ذاته .. هذه المرأة العزيزة ..

إنها تراه موهوباً ، وحتى لو كان حبها له هو ما جعلها
تبالغ قليلاً ؛ فهذه جريمة بسيطة يمكن غفرائها من
أجل صاحبته ..

* * *

الفصل الخامس

كان الأصدقاء جميعاً موجودين في الاحتفال .. الكبير
والصغير .. فبين الصغار كانت (فلوسى) و (جريسي
بينت) وأخوهما (أدبير) .. وكان حرفياً شاباً ..
و (هوزانا ديكنز) الذى كان يدرسه ..

ولعدة أشهر كان (أدبير) و (هوزانا) يهتمان بابنتى
(فوستر) ، وقد لاحظ الأبوان فى رضا هذا الاهتمام ..

لكنهما الآن شعرا بأن ثراءهما قد وضع حاجزاً
اجتماعياً بين ابنتيهما والحرفيين الشبابين .. إن بوسع
الفتاتين الآن النظر لأعلى .. بل يجب عليهما هذا ..
يجب أن تتزوجا من طبقة المحامين أو التجار أو أعلى ..

لم يظهر الزوجان على السطح إلا الكبرياء والتعذيب
الراقى اللذين فازا بإعجاب ودهشة الحاضرين ، لكن
أحدًا لم يفهم سرّ هذا اللغز ، وقد علق ثلاثة أشخاص
على الأمر دون أن يدركوا كم هم موفقون :

- « يبدو كأن آل (فوستر) قد فازوا بأبعدية ..

كانت (أليك) عملية جداً ، ولا تتصرف كأي أم أخرى
فيما يتعلق بزواج ابنتيها .. فلم تحاول أن تبعدهما
عن الحرفيين لكنها قررت أن تترك الطبيعة تختار ..

في البداية فكرت في (برانديش) المحامي الشاب ،
(فلتون) طبيب الأسنان الصاعد .. يجب أن يدعوها
(سالي) للعشاء نكن ليس الآن .. لا خطر من الإبطاء
في أمر مهم كهذا ..

واتضح أن هذه هي الحكمة بعينها ، لأن (أليك)
أحرزت ضربة قوية في سوق الأسهم ، جعلتها تحرز
أربعمائة ألف دولار مرة واحدة ..

وفي هذه الليلة سمحت (أليك) بتقديم (الشمبانيا)
على مادة العشاء ، وشعرت بخجل لهذا لأنها تربت على
الفضيلة ، وكانت قد استهتت صلبة كحديد الغلايات .. لكن
الثراء قد بدأ يفسدهما تدريجياً .. لقد برهننا على
حقيقة تمت البرهنة عليها مراراً من قبل ، وهي أن
المبادئ درع واق من التفاهات والردائل .. لكن الفقر
يهزم ستة دروع من هذه ..

الآن ناقشنا موضوع الزواج ثانية ، فلم يذكر اسم
طبيب الأسنان والمحامي .. لقد صارا خارج السباق ..

تحدثنا عن ابن تاجر الخنازير ، وابن مدير مصرف
القرية ، وفي النهاية قررا أن ينتظرا ويتصرفا في
حكمة ..

قامت (أليك) بمضاربة قوية .. وظلت أياماً في
شك لأن الفشل هنا يعنى الخراب ولا شيء سواه ، ثم
جاءت النتيجة فأغشى عليها من الفرحة .. وحين
أفاق قالت بصوت متهدج :

- « لقد انتهت المعتاة يا (سالي) .. نحن نملك
مليوناً الآن ! »

بكي (سالي) فرحاً ، وقال :

- « آه يا (أليك) يا حبيبة قلبي ! لن نحتاج إلى
التفتير ثانية .. »

وهكذا طار ابن تاجر الخنازير ، وابن مدير المصرف ،
وبدأ الزوجان يفكران في ابن الحاكم وابن عضو
مجلس الشيوخ بالقرية ..

الفصل السادس

من المرهق أن نتابع بالتفصيل وثبات آل (فوستر) في الشراء التخيلي من وقتها .. كانت وثبات مذهلة .. وثبات مبهرة .. وثبات تسبب دواراً ، وراحت الملايين تتكدس فوق الملايين حتى وصلت إلى قبة السماء ، وما زال التيار يتدفق ..

خمس ملايين .. عشرة .. ثلاثون .. هل هناك نهاية ؟

مرّ عامان في حلم رائع ، ولم يلحظ آل (فوستر) مرور الوقت .. إن معهما الآن ثلاثمائة مليون دولار .

وبمرور الزمن صار لديهما ٢٤٠٠٠٠٠٠٠٠ ر ٢٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار .. وبدأ العمل يرتبك وصار من الضروري أن يقوما بجرد ما لديهما من ثروة .. شعرا بهذا .. لكنهما أدركا أن المهمة يجب أن تتم حتى نهايتها بلا توقف متى بدأت .. مهمة تقتضى عشر ساعات ، وأين يمكن أن يجدا عشر ساعات كاملة مرة واحدة ؟



مرّ عامان في حلم رائع ، ولم يلحظ آل (فوستر) مرور الوقت .. إن معهما الآن ثلاثمائة مليون دولار ..

كان (سالى) مشغولاً فى المتجر و (أليك) كانت مشغولة بالطهى وغسيل الصحون والتنظيف ، ولم تكن إحدى الفتاتين تساعداهما لأنها ادخرتهما لمجتمع الصفوة .

كانت هناك طريقة واحدة للظفر بعشر ساعات ، وقد خجل كلاهما من تسميتها ، وانتظر كلٌ حتى يقول الآخر ذلك .. فى النهاية قالت :

- « يجب أن يستسلم أحد .. فلتفترض أننى سميتها ولا تتضايق من هذا .. »

واحمر وجهها ، ودون تعليق آخر قاما بهدم قاعدة عدم العمل يوم السبت^(*) فقد كان هذا هو اليوم الوحيد الذى يمكن أن يجدا فيه عشر ساعات كاملة .. ومن هنا بدأ اتحدارهما لأسفل ..

إن للثروة الواسعة إغراءات ، تهدم بسهولة التركيب النفسى لأولئك الذين لم يعتادوا امتلاكها .. لقد حطما قاعدة السبت ، وبعد جهد جهيد استطاعا جرد ثروتهما ..

(*) الزوجان مسيحيان لكنهما يتبعان قاعدة عدم العمل يوم السبت (Sabbath) التى يمسك بها اليهود ، والمقصود هنا أن الثراء جعلهما يتنازلان دينياً ..

قائمة طويلة هى تبدأ بالسكك الحديدية وكابلات المحيط والسفن البخارية وسلوك البرق ، وانتهاء بمقاطعة (كلوندايت) و (دى بير) ..

ودخل كل هذه الأملاك مائة وعشرون مليوناً سنوياً ..

قالت (أليك) فى رضا :

- « لقد انتهى العمل ، وحبان الوقت كى ننعم بكل هذا المال .. »

شعر (سالى) بأن طناً من الأصفاة الحديدية سقطت من على كاهله ..

ومن يومها اعتاد الزوجان أن يخرقا قاعدة السبت ، واعتادا أن يسهرا إلى ما بعد منتصف الليل ينفقان ثروتهما ، وسبب هذا لهما مشكلة فى ثمن الشمع الذى يبيداته ، حتى شعرت (أليك) بالقلق ..

وسرعان ما أدركت أن زوجها يسرق الشمع من المتجر دون أن يخبرها حتى يستطيعا السهر أكثر ..

هذه هى المشكلة .. إن الثروة العريضة لرجل لم يعتدها هى السم بعينه .. إنها تلتهم أخلاقه لحمًا وعظماً ..

حين كان (سالى) فقيراً كنت تستطيع أن تثق به
فيما يتعلق بالشمع ، أما الآن .. لكن دعنا لا نتجادل
كثيراً .. إن الانتقال من سرقة الشمع إلى التفاح ليس
سوى خطوة ..

واعتاد (سالى) أن يسرق التفاح من متجره ، ثم
الصابون ، ثم سكر الشعير ، ثم البضائع المعلبة .. إن
هذا سهل ما دام اتخذ الخطوة الأولى لأسفل ..

في الوقت ذاته تحول البيت القرميدى إلى بيت من
جرانيت ، ثم تحول هذا إلى بيت أعرض وأكبر وأجمل ،
حتى جاء اليوم الذى يعيشان فيه فى قصر يطل على
الوديان والأنهار .. ملكهما تماماً . يملؤه الخدم
والضيوف المشهورون نوو النفوذ من كل العالم ..

وصار هذا القصر قطعة لا توصف من الأرستقراطية
الأمريكية .. نحو الشرق .. فى جزيرة (رودس) ..
كانا يمضيان السبت من كل أسبوع فى هذا القصر ،
وباقى الأسبوع فى أوروبا ..

وقد ظلّا مخلصين لكنيستهما الإكثريكية الصغيرة ..
وإن كانت خيالات (أليك) أقل جموحاً من خيالات
(سالى) ..

فى البداية زارت (أليك) مجمع الأساقفة ثم زارت
(روما) ، حيث استقبلها الكرادلة بالشموع ..

أما (سالى) فكانت أحلامه أكثر إثارة .. نضرة
تلتهم .. وازداد تذبذباً للدرجة لا تصدق ..

بنت (أليك) جامعة أو اثنتين ، ومستشفى ،
وكاتدرائية .. أما هو فبلى عدة فنادق ..

وبدأ الرجل يلوم نفسه على ما كان منه فى أعوام
الثراء هذه ، وقارن بين نفسه وزوجته .. وراح خذاه
بحمران ، وروحه تفرق خزيًا ..

انظر لها .. إنها ترتفع وتعلو .. بينما هو يهوى فى
التفاهات .. لكم هو خاو ! ماذا يقول لنفسه ؟ ماذا كان
يفعل حين بنت أول كنيسة لنفسها ؟ كان هو يصحب
المليونيرات إلى أندية البوكر ، ويخسر فى كل جلسة
مئات الألف .. وحين بنت أول جامعة لها ماذا كان
يفعل ؟ كان مع أصدقاء السوء .. وحين أنشأت أول مصحة
عقلية ماذا كان يفعل ؟ يألحسرة ! وحين استقبلت فى
(روما) وقابلها البابا وخلع عليها وسام الزهرة الذهبية ،
ماذا كان يفعل ؟ لن يستطيع التماهى .. لن يتحمل أكثر ..

يجب أن يعرف الناس حياته السرية .. لن يعيشها
في الخفاء .. لسوف يخبرها بكل شيء ..

وأخبرها وبكى وتوسل إليها كي تسامحه ..

كانت صدمة هائلة لها ، وتراجعت .. لكنه كان ملكاً
لقلبها ونعمة عينها وكل شيء فيها ، لذا لم تستطع
إلا أن تسامحه ، وإن أدركت أنه لن يعود كما كان ..
سيندم فقط لكنه لن يستقيم ثانية ..

لكنها برغم كل شيء فتحت له قلبها المفعم بالحنين ..

* * *

الفصل السابع

في عصر أحد أيام الأحد كنا يركبان يختهما في
بحور الصيف ، يسترخيان تحت مظلة على السطح ..
لقد زادت فترات صمتهما في الآونة الأخيرة ، وقد
بهتت الرابطة القوية بينهما ..

لقد حاولت (أليك) مراراً أن تنسى اعتراف (سالي)
المخيف لها لكنها لم تستطع .. الآن تستطيع أن ترى أن
زوجها صار شيئاً منتفخاً مقرزاً .. لكنها بدورها كانت
تخفي عنه سرّاً مخيفاً ، وفي هذا لم تعامله بشرف ..

لقد قامت بكل ثروتهما في شراء كل السكك
الحديدية وكل مناجم الفحم في البلاد ، وكانت ترتجف
كل سبت خشية أن يكتشف ذلك من كلمة عارضة
تتفوه بها ، وكانت خجلى من خيانتها هذه ، فلم
تستطع أن تمنع نفسها من الإشفاق عليه ..

لكم يملؤها تأنيب الضمير وهي تراه يرقد هناك سعيداً ،
وأتقاً بها تماماً ، وهي تدارى عنه كارثة رهيبه محتملة ..

قال لها :

- « هل تعلمين يا (أليك) ؟ »

أجابت بكل رقة مصطنعة :

- « نعم يا عزيزي ؟ »

- « أعتقد أننا نرتكب خطأ .. أعنى بصدد موضوع

الزواج .. »

وجلس - رخواً بديناً - وتكلم بجدية :

- « لقد مرت خمسة أعوام ، وقد واصلت سياستك من

البداية ، وكلما اعتقدت أننا سنرى زفاف البنيتين وجدت

أنت شيئاً جديداً في الأفق .. أعتقد أنك صعبة الإرضاء ..

في البداية تخلينا عن طبيب الأسنان والمحامي .. قد

أوافقك في هذا .. ثم تخلينا عن ابن الحاكم وابن عضو

مجلس الشيوخ .. قد أقبل هذا .. بعد هذا جاء ابن

رئيس الولايات المتحدة .. ربما كان هذا صائباً .. ثم

قررت أن تفتشى عن الأرستقراطية ، وحسبت أننا نجحنا

أخيراً .. جاءنا اثنان من الأرستقراطيين الحقيقيين من

أوروبا ، فإذا بك ترفضينهما ببساطة .. لقد تخلصت من

(البارونيت) من أجل (البارون) .. وتخلصت من

(البارون) من أجل (الفيسكونت) .. وتخلصت من

(الفيسكونت) كي تظفري بـ (إيرل) ، وتخلصت

من (الإيرل) من أجل (ماركيز) .. وتخلصت من

(الماركيز) من أجل (دوق) .. يجب أن تهدئي

يا (أليك) .. لقد وصلت إلى الذروة .. لقد جاءك

أربعة دوقات من أربع جنسيات لا غبار عليهم في

النسب .. لا تتأخري أكثر من ذلك .. »

وكان يبتسم في صفاء ورضا ، وهو يقول ما قال ..

كانت عيناها تشعان بدهشة لطيفة وهي تصفي ، ثم

مالت عليه هامسة :

- « (سالي) .. ماذا تقول عن الأسر المالكة ؟! »

- « مذهل ! »

إن الرجل المسكين فقد توازنه للحظة ، ثم جلس

أمام زوجته ، وغمرها باتبهاره واحترامه ، وقال :

- « (أليك) .. أنت أعظم امرأة على وجه الأرض ..

لن أخبر أبداً حجمك الحقيقي ولا أعماقك .. حسبت نفسي

مؤهلاً لانتقاد لعبتك ، ولم أدر أنك تخفين شيئاً في كحك .. »

قربت المرأة شففتيها من أذنه وهمست باسم ،
فصاح :

« إنها ضريبة موفقة بحق .. وهو يملك مقبرة
كاملة في أجمل بقعة بأوربا .. وهي مقبرة من أرقى
مقابر العالم ، ولا يدفنون فيها إلا حالات الانتحار ..
إن لديه ثمانمائة فدان .. لكنها السيادة وهي أهم
شيء .. إنها أهم من الأرض .. إن الأرض لا تساوي
شينا ، والصحراء مليئة بها على كل حال .. »
قالت (إليك) في رضا :

« فكر في هذا يا (سالي) .. إنها أسرة لم تناسب
قط أي بيت غير ملكي في أوربا .. سيجلس أحفادنا
على عروش ! »

« في حياتك يا (إليك) ! ويحملون الصولجانات
أيضاً ، بطريقة طبيعية كما أحمل أنا عصا الحديقة ..
ومن الآخر ؟ »

« سموه (سيكزموند سيجفريد لانفيلد
شفارتزبرج بلوتفورست) دوق (كاتزنيامر) .. »
« لا ! أنت لا تعنين هذا .. »

« بل هو حقيقي كما أجلس هنا أمامك .. »

فاض به ، فصاح في طرب :

« إن هذا لا يصدق ! إنه أكثر البيوت عراقه بين
الـ ٣٦٤ إمارة ألمانية قديمة ، ومن الإمارات القليلة
التي ظلت بعد ما قام (بسمارك) بتوحيد ألمانيا ..
لقد انتظرنا طويلاً يا (إليك) وتخطمت قلوبنا ، لكن
يعلم الله كم أنا سعيد الآن .. سعيد لك أنت التي قمت
بكل هذا .. ومتى يتم هذا ؟ »

« الأحد القادم .. »

« حسن .. يجب أن يتم بأبهي صورة .. أعرف
أن الملوك يفضلون الزواج الـ Morgantic .. » (*)

« ولماذا يسمونه هكذا ؟ »

« لا أعرف .. لكنهم يصرون عليه .. »

(*) Morgantic هو الزواج الذي يتم بين فرد من الأسرة
المالكة وفرد من عامة الشعب ، وبالتالي لا تترتب للطرف الثاني
أية حقوق ملكية يطالب بها ..

- « إذن منصرف عليه .. سيكون الزواج Morgantic
وإلا فلا »

- « هذا يسوى الأمور .. سيكون أول زواج من
نوعه فى أمريكا .. »

وغرق الزوجان فى الأحلام ، وترتيب هذا الزواج .

★ ★ ★

الفصل الثامن ..

لمدة ثلاثة أيام مشى الزوجان فى الهواء ،
ورأسهما فوق السحب .. وراح (سالى) يبيع العسل
بالوزن ويبيع السكر بالياردة ، ويبيع الصابون حين
يشترى أحدهم منه شمعاً .. أما (أليك) فوضعت القطعة
فى سلة الغسيل ، وسقت الغيارات المتسخة باللبن ..

كان الجميع يتساءل : ماذا حدث لـ (فوستر) ؟

ثم جاءت الأحداث ..

كانت أسهم (أليك) ترتفع باستمرار لمدة يومين ،
وراح السماسرة الوهميون يصرخون فيها :

- « بيعى ! بيعى ! بحق السماء بيعى ! »

وقال لها (سالى) :

- « بيعى ! لا ترتكبنى خطأ الآن ، فأنت تملكين

الأرض وما عليها .. »

لكنها ثبتت إرادتها الحديدية ، وفى اليوم التالى

جاء الانهيار الهائل في البورصة ، حين تداعى
(وول ستريت) ، وشوهد المليونيرات يستجدون خبزهم
في الطرقات ..

ثم جاءت مكالمة نها تخبرها .. لقد باع السمامرة
أسهمهم .. وخسر كل سهم خمسا وتسعين نقطة ..
هنا فقط تراجع الرجل فيها ، واستردت المرأة
السيطرة .. أحاطت عنق زوجها وبكت :

- « لا تسامحنى .. أنا استحق كل لوم .. أنا السبب ..
نحن الآن معدمون .. لن يتم الزواج وانتهى كل شيء ..
لن تزوج الفتاتين حتى لطبيب الأسنان والمحامى .. »
جرى اللوم على لسان (سالى) ، وقال :

- « لقد توسلت إليك أن تبيعى .. لكنك .. »
ولم يجد الشجاعة كي يزيد تعاستها .. ثم أضاف
فى تعقل :

- « نحن لم ننفق مليئا من إرث عمى .. ما فقدناه
هو الحصاد التخيلى لهذا المستقبل بوساطة حصافتك
المالية التى لا تضاهى .. لدينا ثلاثون ألفا لم يمسه

أحد ، وبالخبرة التى اكتسبتها ، فكرى فيما ستفعلن
خلال عامين .. إن الزيجتين لم تلغيا بل تأجلتا .. »
كانت هذه كلمات مباركة ، وكان تأثيرها كهربيا ..
لمعت عينا (أليك) ودمعتا ، وقالت بقلب ممتن :

- « الآن وهنا أصرح بأن .. »

هنا قاطع عبارتها قدوم ضيف ..

كان هذا هو مالك ورئيس تحرير جريدة (ساجامور) ،
وكان قد جاء إلى القرية لزيارة جد له أوشك على
الرحيل من عالمنا ، وكان راغبا فى الجمع بين العمل
والحزن ، لذا قرر أن يزور آل (فوستر) الذين لم يدفعوا
سنة دولارات مطلوبة لتجديد الاشتراك فى جريدته ..

رحبا بالضيف بحرارة ، فهو يعرف كل شيء عن العم
(تلبيرى) ، والفرص المتاحة له كي يذهب إلى المقبرة ..
بالطبع لن يسألا أية أسئلة لأن هذا سيدمر الوصية ،
لكنهما قررا أن يحوما حول الموضوع ، لكن رئيس
التحرير الأحمق لم يفهم ما يريدان ، وفى النهاية استطاع
الحظ أن يقدم لهما ما عجز الفن عن تقديمه ..

ضحك المحرر وقال :

- « لو كنت تضم (تلبيري) إلى الأثرياء فأتأ
لا أوافق .. فليس لديه مليم ، وقد احتاجت المدينة إلى
دفنه على حسابها .. »

تصلب آل (فوستر) لمدة دقيقتين ، وشعرا
بالبرد ..

- « هل هذا حقيقي ؟ »

- « نعم .. لقد كنت واحداً من منفذى الوصية ، ولم
يكن عنده سوى دراجة يدوية ، وقد تركها لي .. لم
يكن بها عجلة سليمة ونم يكن لها نفع .. لكنها شيء
على كل حال ، وقد كتبت له نعيًا لهذا السبب لكن
حروفه تبعثرت في المطبعة .. »

لم يكن آل (فوستر) يصفيان .. كانوا جالسين
بلا حراك برأسين مطرقين ، وبعد ساعة كان رئيس
التحرير قد رحل دون أن يشعر ..

تبادلا النظرات مرهقين ، ثم بدأ يتكلمان بطريقة
حائرة كالأطفال ، كتنا بيدان جملة ثم لا ينهيانها ،

قال رئيس التحرير وقد احتاج لاستعمال المجاز في
نقطة من حديثه :

- « إنه صلب مثل (تلبيري فوستر) .. »

فلما رأى ذهول الزوجين ، قال في حرج :

- « لم أقصد ضرراً .. إنها مجرد استعارة .. هل

هو قريب لكما ؟

أجاب (سالي) بكل ما استطاع استحضاره من
لامبالاة :

- « لا أعرفه .. لكنني سمعت عنه .. »

استعاد رئيس التحرير رباطة جأشه ، فسأله
(سالي) :

- « هل هو على ما يرام ؟ »

- « لماذا ؟ إنه في القبر منذ خمسة أعوام .. »

ارتجف آل (فوستر) حزناً ، برغم أن تعبيرهما
بدا كالمسرور ، وقال (سالي) :

- « آه .. هذه هي الحياة .. حتى الأثرياء لا يفرون ..

لا أحد يهرب .. »

ويسود الصمت ولا يلاحظان أن الجملة لم تنتم .. ومن حين لآخر كانا يشعران بأن شيئاً ما حدث لعقليهما .. ثم ينمس كل منهما يد الآخر في حنين مشترك ، كأن كلاً منهما يقول لصاحبه : أنا معك .. لن أتخلى عنك .. سنتحمل الأمر معاً ، وفي مكان ما يوجد الخلاص والنسيان .. في مكان ما يوجد قبر وسلام ، ولن يطول هذا ..

ولمدة عامين عاشا في ظلام عقلي تام واكتئاب دائم ، وندم غامض ..

ثم جاء الخلاص يوماً ، وقرب النهاية ارتفع الظلام عن عقل (سالى) فقال :

- « ثروة عظيمة تم اكتسابها في ظروف فاسدة .. ومفاجأة هي فح .. لم نجدنا نفعا ، وكانت متعتها محمولة قصيرة ، لكننا من أجلها لفظنا حياتنا البسيطة السعيدة .. فليتعض منا الآخرون .. »

ورقد صامتاً لحظة بعينين مغمضتين ، ثم جاءت سكرة الموت تعصر فؤاده ، وغاب عنه الوعي ، فقال مغمغماً :

- « لقد جلب له المال المتاعب فقرر أن ينتقم منا .. نحن اللذين لم نؤذّه قط .. ترك لنا ثلاثين ألفاً عالمًا - بمكر - أننا سنحاول زيادتها ، فنحطم حياتنا وقلبنا .. وما كان ليتكلف شيئاً لو ترك لنا مبلغاً أكبر يقضى على رغبتنا في الزيادة .. مبلغاً أكبر من الإغراء .. كانت روح أطيب ستفعل هذا ، لكن في هذا الرجل لم تكن روح كريمة .. لاشفقة .. لا .. »

* * *

أجنة أم نار؟

الفصل الأول

- « أنت تفوهت بكذبة »

- « أنت تعترفين .. بالحق تعترفين .. أنت قلت

كذبة .. »

★ ★ ★



الفصل الثاني

كانت الأسرة تتكون من أربعة أشخاص :
(مارجريت) وهي أرملة عمرها ستة وثلاثون عامًا ،
(هيلين) ابنتها وهي في السادسة عشرة ، والعمتين
(هاتا) و (هستر) وهما عاتسان في السابعة والستين
توعمان ..

وكانت النسوة يعشقن الفتاة الصغيرة ، ويرقبن
روحها الحلوة في مرآة وجهها ، وتفتعش أرواحهن في
الإصغاء لها ، ويشعرن كم أن العالم عذب ثرى عادل
في وجودها ..

في داخلهما كانت العمتان عزيزتين لطيفتين ، لكن
بالنسبة للسلوك كانت تربيتهما انصارمة قد جعلتهما
شديدي الحزم ولا أقول قاسيتين ..

كان تأثيرهما على البيت قويًا جدًا ، حتى إن الأم
وابنتها قبلتا سلطتهما في رضا وبلا تساؤل ..

لم تكن هناك صدمات ، ولا أخطاء ، ولا قلوب
تحترق في هذا البيت ، ولم يكن في البيت هكذا مكان
للكذب .. لم يكن في بيت كهذا شيء سوى الحقيقة
الصلبة كالمعادن .. الحقيقة التي لا تلين ولا تتهاود ،
وليكن ما يكون ..

وفي يوم - تحت ضغط الظروف - نطخت حساء
البيت الصغيرة شفيتها بالكذب ، واعترفت بذلك
بالدموع ولوم النفس ..

لا توجد كلمات يمكن أن تصور ذعر العميتين ..
كان السماء فوقهما قد تجعدت ، واتهارت ، والأرض
صارت خرابًا ..

جلستنا جنبًا إلى جنب شاحبتى الوجه تتبادلان
النظرات ، وترمقان المتهمة التي ركعت على ركبتيهما
أمامهما ، تدفن وجهها في حجر كل منهما وهي تنن
وتبكي وتطلب الرحمة ..

لثمت يد واحدة منهما في تواضع ، فقط لتسحب
اليد كأنما تشعر بأشمنزاز من هاتين الشفتين
الملطختين ، ومن حين لآخر تقول إحداهما :

- « أنت قلت كذبة .. »

وتقول الأخرى :

- « أنت تعترفين .. بالحق تعترفين .. لقد قلت
كذبة .. »

كان الموقف فريدًا لم تمرأ به من قبل ، ولا يُصدق ..
ولم تفهماد ولم تعرفا كيف تتعاملان معه ..

وقررت المرأتان أن الطفلة خاطئة يجب أن تؤخذ إلى
أمها التي كانت مريضة لا تدرى بما يحدث ، وتوسلت
لهما (هيلين) أن ترحمها وتسترأ عارها لأن أمها
لن تتحمل ..

لكن الواجب يسبق كل تضحية ، ومع الواجب يهون
كل شيء .. إن الواجب يسبق كل شيء ولا تهاون فيه ..

كانت العمتان عنيدتين في الحق ، وقالتا إن القانون
يجعل الابن يدفع ديون أبيه ، ويمكن أن نعكس هذه
القاعدة .. لهذا من العدل أن تعانى الأم الطيبة لطفلة
أثمة آلام الحزن والعار ، التي هي ثمن كل خطيئة ..

وتحرك الثلاث إلى غرفة المريضة ..

في هذا الوقت كان الطبيب يدنو من البيت .. كان طبيباً بارعاً ورجلاً طيباً سليم الطوية ، لكن يجب أن تعرفه لمدة عام كي لا تمقته ، ولعامين كي تتعلم كيف تتحملة ، ولثلاثة أعوام كي تعجب به ، ولأربعة أعوام كي تعرف كيف تعيش معه .

إنها عملية تعلم مرهقة بطينة ، لكن لها نفعها ..

كان ضخم الجثة خشن الصوت له وجه أسد ، وعينان أحياناً ما تكونان عيني قرصان وأحياناً عيني امرأة حسب مزاجه ..

لم يكن يبالي بقواعد اللياقة ، وكان صريحاً إلى درجة أن له رأياً في كل شيء ، وأراؤه جاهزة بمجرد فتح الصنبور .. ولم يكن يبالي ما إذا كانت هذه الآراء تروق للمستمع أم لا ..

كان في شبابه بحاراً ، لذا كان هواء البحر المالح يفوح منه ، وكان يؤمن أنه أحسن واحد في المنطقة .. وكان يكافح جهده من أجل ما يعتقد ..

وقد استعمل الكثير من الشتائم في البحر في شبابه ، فلما استقام التزم بقاعدة هي ألا يستعملها إلا فيما ندر ، وحين يتطلب الأمر هذا ..

وكان يحمل روحه على وجهه ، ولديه اهتمام شديد بأل (نستر) وكانوا يعرفون هذا ..

الآن هوذا يدنو من البيت على مسافة ..

وكانت العمتان والفتاة المتهمّة على باب غرفة المريضة ..



الفصل الثالث

وقف الثلاثة أمام الفراش ، وأدارت الأم وجهها لترمق طفلتها بعينين مغرورقتين بالحنان والحب الأمومي ، وفتحت منجأ ذراعها لها ، لكن العمة (هانا) أبقت الفتاة بعيداً عن حضن أمها وقالت :

- « انتظري ! »

وقالت العمة الأخرى بلهجة مؤثرة :

- (هيلين) .. قولي لأمك كل شيء .. اغسلي روحك .. »

وقفت الفتاة مهزومة بانسة ، وناحت بقصتها حتى النهاية ، ثم صاحت :

- « أه يا أماه ! أئن تغفري لي ؟ أنا حزينة جداً .. »
قالت الأم :

- « أغفر لك يا بنيتي .. هلمى إلى ذراعى وضعى رأسك على صدرى ، فلو كنت قلت ألف كذبة »

هنا نظف أحدهم حلقه على سبيل التنبيه ، ونظرت العمتان إلى أعلى وانكمشتا في ثوبيهما .. هناك وقف الطبيب ووجهه سحابة رعدية ، ولم تكن الأم وابنتها تعرفان شيئاً عن قدومه ، فظلتا ملتصقتين قلباً بقلب .. وضع الطبيب رأسه على كتفيه ، وأوماً للعمتين فهرعتا نحوه ترتجفان ، فهمس لهما :

- « ألم أقل لكما إن هذه المريضة يجب أن تبعد عن الانفعالات ، فماذا تفعلان هنا ؟ نظفا هذا المكان .. »

وبعد نصف ساعة ظهر في البهو ، ويده حول خصر (هيلين) يداعبها ويقول لها أشياء مضحكة لطيفة ، وكانت قد استعادت تألقها ، فقال لها :

- « الآن يا عزيزتى اذهبي لغرفتك ، وابتعدي عن أمك .. لكن لحظة .. أخرجي لسانك ! هكذا ! أنت سليمة كالبنديقة .. »

وسمح لها بالانصراف .. ثم اكفهر وجهه ثانية ، وجلس يقول :

- « لقد أحدثتما الكثير من الضرر ، وربما بعض الخير .. نعم .. إن مرض السيدة هو التيفود .. لقد

جعلتماه يعلن عن نفسه بحماقتكما ، وهذه خدمة لى ..
لم أكن قبيل الآن أعرف ما هو .. »

باتفعال هبت المرأتان مذعورتين ، فقال :

- « اجلسا .. ماذا تحاولان عمله ؟ »

- « يجب أن نظير ! »

- « لن تفعلنا شيئاً .. لقد قارفتما كثيراً من الأذى
حتى الآن .. فهل تريدان تبديد كل ما لديكما من
الحماقات والجراتم فى يوم واحد ؟ اجلسا ! لو خالفتما
تعليماتى فسانتزع مخيكما لو كانت عندكما الأدوات
اللازمة لهذا .. »

جنست المرأتان متضايفتين شاعرتين بالمهاتة ،
لكن مضطرتين تحت الضغط ، فأردف الطبيب :

- « كيف جرؤتما على مخالفة أوامرى ؟ »

نظرت (هستر) إلى (هاتا) مناشدة .. فلم تكن
إحدى المرأتين ترغب فى الرقص على هذه الأوركسترا
القاسية ، ثم بدأت (هستر) تعبت فى ثنيات شالها ،
ثم قالت :

- « لم نخالف أوامرك لسبب هين .. كان هذا
واجباً ، ومع الواجب ليس لدى المرء خيار .. يجب أن
يؤديه .. لقد كذبت الفتاة .. »

نظر لها الطبيب بضع دقائق مشدوهاً ، ثم انفجر :

- « كذبة ! هل فعلت هذا ؟ فليرحمنى الله .. إننى
أقول مليون كذبة يومياً ، وكل واحد يفعل هذا بما فيه
أنتما .. وهذا هو السبب الذى جعلكما تخالفان أوامرى ؟
هذه حماقة خالصة .. إن هذه الفتاة لا تستطيع أن
تكذب كذبة تؤذى شخصاً وأنت تعرفين هذا جيداً .. »

- « لكنه فى النهاية كذب .. »

- « لعمر الله لم أسمع حماقة كهذه .. ألا تعرفين
انفارق بين كذبة وأخرى ؟ »

ضمت (هاتا) شفثيها كالملزمة ، وقالت :

- « كل الأكاذيب خطايا .. »

تمثل الرجل نافذ الصبر ، وقال :

- « ألم تقولى كذبة قط لحماية شخص من أذى
أو عار ؟ »

- « نعم .. »

- « ولا حتى لحماية صديق ؟ »

بدأت المرأتان تقلقان على ابنة أختيهما اللطيفة
والمرض الذي أصابها مؤخراً ، وأرادتا أن تساعدا
البائسة وتريحها ..

قالت (هستر) دامعة :

- « سنساعدنها .. لا توجد ممرضتان مثلنا ..
لا ممرضة تقف مثلنا على فراش المريض حتى تسقط
وتموت ، والله يعلم أننا سنفعل .. إن الطبيب يعرفنا
جيداً .. لن يجرونا على إحضار ممرضة أخرى .. »

قالت (هانا) من وراء الضباب الذي غلف عيوناتها :

- « يجرونا ؟ إنه يجرونا على كل شيء هذا الشيطان .. »

- « إنه ذكي ولن يفكر في شيء كهذا .. »

جاء الطبيب فقال :

- « إن (مارجریت) مريضة .. ستسوء حالتها قبل
أن تتحسن وعلى واحدة منكما أن تظل معها طيلة
الوقت .. إن (هيلين) كذلك مريضة بالمرض ذاته .. »
تبادلت العمتان النظرات ، ثم صاحت (هستر)
مذهولة :

- « نعم .. »

- « ولا أعز صديق ؟ »

- « نعم .. ولا حتى لأنقذ حياته .. »

- « ولا حتى لإنقاذ روحه ؟ »

- « ولا روحه .. »

بعد صمت طال ، قال الطبيب :

- « أسألكما معاً : لماذا ؟ »

- « لأن أية كذبة خطيئة ثمنها فقدان أرواحنا ..

وخاصة لو متنا قبل أن نتوب .. »

نهض واتجه للباب ، وعند العتبة استدار وقال :

- « أصلحنا نفسيكما .. تخلصا من هذا الإخلاص

الرخيص الأتاني رغبة في إنقاذ روكيكما التافهتين ..

أنقذا روكيكما بالطريق الصحيح وإلا فلن تخسرا شيئاً

بفقدانهما .. »

وقفت المرأتان شاعرتين بالانسحاق والمهانة ..

لقد أوديتا في الصميم .. وأدركتا أنهما لن تسامحاه

على هذه الكلمات أبداً ..

- « كيف هذا ؟ لقد قلت منذ ساعات إنها سليمة كالبنديقة .. »

أجاب في هدوء :

- « كنت أكذب .. »

نظرت له (هانا) في اشمزاز ، وقالت :

- « كيف تقدم اعترافاً كهذا وأنت تعرف مقتنا لكل أنواع الكذب ... »

- « صه ! أنت جاهلة كالقطط .. كباقي البثور الأخلاقية تكذبين من الصباح إلى المساء ولا تعترفين بهذا .. وتشمخين بأنفك كالقديسين باعتبارك لا تقولين إلا الحقائق .. لقد قلت للطفلة كذبة كريمة كي أحميها من خيالها الذي كان سيجعلها تموت بالحمى خلال ساعة .. هل كنتما ستأخذان الطفلة إلى فراش أمها لو عرفتما أنني قادم ؟ »

صمتت المرأتان ولم تتكلما ، فأردف :

- كنتما ستمتعان عن ذلك ، ولو جئت بعد هذا المشهد وسألتكما عن سبب توتر الأم للذمتما بالصمت ..

وهذه كذبة .. كذبة صامتة لكنها مؤذية .. هكذا ترين أنك لن تكذبي يا (هستر) لإنقاذ روح أعز صديقة لك ، لكنك كنت ستكذبين لتجنب مشاق الاعتراف بحقيقة مريرة .. »

ثم ودعهما وانصرف ..

* * *

وعند الظهيرة ازدادت حالة (هيلين) الطفلة
سوءًا ، وسألت الأم عنها ، فشجبت (هستر) ولم تخرج
الكلمات من فمها .. هنا شحب وجه الأم بدوره
وشهقت :

- « آه .. رباه ! هل هي مريضة ؟ »

هنا تمرد قلب العمة المعذبة ، وقالت :

- « لا .. لا .. إنها على ما يرام .. »

بدا السرور على المرأة وقبلت العمة ..

وفيما بعد حكى (هستر) القصة لأختها ، فقابلتها
بنظرة لائمة وقالت :

- كانت هذه كذبة يا أختاه .. »

- « آه يا (هانا) .. كانت خطيئة لكنى لم أجد

بوسعى شيئا .. »

- « لا يهمنى .. كانت كذبة .. »

- « أعرف هذا .. لكن لو تكرر الأمر لفعلت الشيء

ذاته .. »

الفصل الرابع

بعد اثني عشر يومًا كانت الأم وابنتها فى قبضة
مرض مخيف .. ولم يعد سوى القليل من الأمل ،
وكانت العمتان شاحبتين مرهقتين لكنهما لم تتخليا عن
عملهما ، وكان قلباهما محظمين من أجل البائستين ..
وطيلة هذه الفترة كانت الأم تتوق بشدة إلى الطفلة ،
وحين عرفت الأم أن مرضها هو التيفود أصابها الذعر ،
وأرادت أن تتأكد من أن الطفلة لم تصب بالعدوى فى
جلسة الاعتراف ..

أخبرتها (هستر) أن الطفلة سليمة تمامًا كما قال
الطبيب ، وضائق هذا (هستر) لكن فرحة الأم جعلتها
تشعر بالرضا .. صحيح أن بعض الخجل غالبها لكن
ليس إلى حد أن تتمنى لو لم تفعل ..

قالت المرأة إنها ستحمل بعد طفلتها عنها ، لأنها
تفضل الموت على أن تخاطر بحياة الطفلة ..

- « إذن سأخذ مكانك مع الأم غدا .. سأخبرها
بالحقيقة .. »

وفى الصباح كان لديها تقرير مروع لتقدمه للأم
لكنها تماسكت ، وحين عادت كانت (هستر) تنتظرها
شاحبة الوجه ترتجف ..

وفى الردهة قالت (هاتا) وعيناها تسبحان فى
الدموع :

- « ليسامحنى الله .. قلت لها إن الطغنة بخير ! »

- « فليباركك الله يا (هاتا) ! »

ومن هذا الحين عرفت العمتان مدى قوتهما ،
واستسلمتا فى تواضع لضروريات الموقف ، وفى كل
يوم كانتا تقولان كذبة الصباح ، ثم تستغفران الله فى
المساء ..

وفى كل يوم كان نبراس البيت يتهاوى شيئا فشيئا ،
بينما العمتان ترسمان نضارتهما للأم ، ويدمى قلبهما
سرورها ..

وفى الأيام الأولى كانت الفتاة تكتب رسائل لأمها

أخفت فيها شأن مرضها ، وكانت الأم تحتضن هذه
وتلثمها مرارا ، وتداريها تحت وسادتها ..

وبعد أيام وهن العقل وتراخت اليد فلم تعد الفتاة قادرة
على كتابة شيء ، وحارت العمتان فيما تقولانه للأم ..
إن أعذارهما تنفذ بسرعة ..

★ ★ ★



في النهاية حملت (هانا) الرسالة إلى الأم ، التي راحت تلتهم
الكلمات الثمينة مراراً ؟

الفصل الخامس

بعد قليل راحت العمتان تمارسان عملاً مرهقاً شاقاً
في غرفة (هيلين) .. لقد حاولتا - بجدية وتصميم -
بأناملها الجافة أن تزيّفا الرسالة المطلوبة .. فشلتا
مراراً لكن أداءهما بدأ يتحسن ..

كانت دموعهما تسقط على الورقة فتلوّثها ، وأحياناً
كانت كلمة غير محسوبة تجعل الرسالة خطيرة ،
فتبدآن من جديد ..

في النهاية حملت (هانا) الرسالة إلى الأم ، التي
راحت تلتهم الكلمات الثمينة مراراً ، وقالت :

- « أه لو كان يوسعى أن ألتمها أو أخذها بين
ذراعي ! »

قالت العمة :

- « كم تأثرت حين سمعتها تغنى أغنية (لوخ
لوموند) .. لقد حركت مشاعري .. إن غناء الشباب
يحرك العواطف .. »

وغابت ما بين خيال أنيم إلى آخر ، فرطبت العمة
(هانا) الشفتين الجافتين ، ومسحت الحاجبين
الساخنين ، وهى تشكر الله على أن الأم سعيدة لاتعرف
ما يدور ..

* * *

- « أحسبني لن أعيش لأراها ثانية .. »
تأثرت العمة فقالت :

- « لا تقولى هذا .. أرجوك .. »

- « لاتبكى .. إبنى سأعيش .. سأحاول لو استطعت .. »

ماذا تفعل من دونى ؟ هل تتكلم عنى كثيراً ؟

- « نعم .. كثيراً جداً .. »

- « أعرف هذا .. إن الزوجة المدللة تعرف أنها
محبوبة ، لكنها تطالب زوجها كل يوم بأن يقول هذا ،
لمجرد متعة سماعه .. أرى (هيلين) استعملت القلم
الحبر هذا المرة .. هذا أفضل .. إن الرصاص يبهت
بسرعة ولنسوف أدم على ذلك .. »

وانصرفت العمة (هانا) مثقلة القلب لترى الفتاة ..

كانت فى غيبوبة تامة ، تنظر لمن حولها بعينين
مفتوحتين لا تريان ، ومن شفيتها كانت كلمات مضطربة
تخرج :

- « هل أنت لست أمى ؟ أنا أريدها .. كانت هنا منذ
دقيقة هل ستعود سريعاً ؟ هل ستعود الآن ؟ كل شىء
يدور ويدور من حولى آه يارأسى ! »

الفصل السادس

في كل يوم كانت الطفلة تتحدر أسرع نحو القبر ، وأخبار العجوزين الملققة عن صحتها تنقل لأمها السعيدة التي دنت نهايتها أيضًا ، واستمرت الرسائل المزيفة وكان قلباهما ينزقان وهما يريان لهفة الأم ..

في النهاية جاء ذلك الصديق اللطيف .. جالب السلام والراحة للجميع .. وكانت الإضاءة خافتة والفجر يدنو ، حين عبرت الردهة أطراف صامته متجهة إلى غرفة (هيلين) ، ووقفت حول فراشها ..

أما الفتاة فقد انغلق جفناها ، والملاءة على صدرها تعلقو وتهبط بوهن ، بينما كانت شهقة أو دمعة تحطم الصمت ، وكانت الفكرة المسيطر على الأذهان هي حسرة هذا الموت .. الرحيل إلى الظلام العظيم بينما الأم ليست هنا لتخفف الآلام وتبارك ..

تحركت يدا الطفلة باحثة عن شيء ، فضمتها (هستر) إلى صدرها ياكية ، وظهر ضوء غامر على

وجه الفتاة لأنها حسبت الذراعين نراعى أمها ، وذهبت لنهايتها سعيدة ..

وبعد ساعتين ذهبت (هستر) إلى غرفة الأم ، فسألتها :

- « كيف حال (هيلين) ؟ »

- « هي بخير .. »

* * *

الفصل السابع

عند الظهر جهزوا المتوفاة ، وفي التابوت رقدت
الشابة وعلى وجهها سلام عظيم .. وجاءت (هستر)
راجفة لتقول للموجودين :

- « إنها تطنب منى ورقة ! »

ابيض وجه (هانا) لأنها لم تتوقع هذا .. لقد ظنت
أن الخدمة انتهت .. تبادلت المرأتان النظرات ، ثم
قالت (هستر) :

- « لا مفر .. لا بد من الورقة وإلا ستشك :

- « وستعرف .. »

وهكذا كتبنا رسالة جديدة حملتها (هستر) ، يقول
سطرها الأخير :

« عزيزتى ... »

« سنكون معاً ثانية .. أليس هذا خبيراً طيباً ؟
الجميع يقول هذا .. »

قرأت الأم الرسالة ، وهمست :

- « يا للطفلة المسكينة ! كيف تتحمل حين تعرف ؟
إنها لا تشك فى شيء .. »

- « إنها تعتقد أنك ستتعافين .. »

- « كم أنت طيبة أيها العمّة (هستر) ! دعيني
أقبلك عنها .. »

ضعى القبلة على ثغرها وقولى إن قلب أمها فيها ..
وبعد ساعة - ودموعها تسيل - أدت (هستر)
مهمتها العسيرة ..

★ ★ ★

وحين انتهى اللحن ، استراحت روح أخرى من
عذاب الحمى ، وقالت الأختان وهما تنوحان حول جثة
الأم :

- « من الجميل أنها لم تعرف قط .. »

* * *

عند منتصف الليل جلسنا تبكيان ..

رأنا شخصاً باهر الجمال يتأنق تأنقاً غير أرضى ،
دخل عليهما وقال :

- « للكذابين موضع في جهنم يحترقون في نيرانه
للأبد .. فلتندما ! »

سقطت العجوزان على ركبتيهما أمامه ، وانحنى
رأسهما ، لكن لسانيهما التصقا بسقفي فميهما ،
وأصابعهما الخرس ..

وأخيراً قالت إحداهما :

- « إن خطيئتنا عظيمة تجللتنا بالعار .. نحن

الفصل الثامن

دوى صوت جرس عبر الريح ، فتساءلت الأم :

- « الناقوس يقرع أيتها العمّة (هانا) ! روح
مسكينة قد رحلت كما سأفعل أنا .. لن تتركاها
تنسائي ؟ »

- « لا .. لن تنسى .. »

- « هل تسمعان هذه الأقدام في الردهة ؟ »

- « إنهم مجتمعون من أجل (هيلين) المسكينة
حبيسة البيت .. جاءوا ليسمعوها بعض الموسيقى التي
تحبها ، وظننا أنك لن تتضايقى .. »

- « لا .. لا .. أعطاها كل ما تريده ! »

وبعد فترة صمت قالت :

- « كم أن هذا لطيف ! إنه أرغنها .. هل تعزفه
بنفسها ؟ هذه المقطوعة حزينة جميلة .. إنها تفتح
أبواب السماء لى ! لو استطعت أن أموت الآن ! »

الفصل التاسع

أهي الجنة أم النار؟

مخلوقات تعسة تعرف ضعفها الإنساني ، ولو خضنا
تلکم السبيل الوعرة ثائية فلسوف يكون الفشل
نصيبنا .. »

ورفعتا رأسيهما في تضرع ، لأن الشخص قد ذهب ،
وإن كان قبل ذهابه قد همس لهما بمصيرهما ..

إدوارد ميلز وجورج بت ..

كنا متباعدين في القرابة .. ربما كنا ولدي عم من الدرجة الخامسة أو شيئاً كهذا ، وكنا طفلين يتيمين ، لذا تبناهما آل (برامز) اللذان لم يرزقا بأطفال ..

كان آل (برامز) يقولان لهما :

« كونا مخلصين رزينين منتجين .. وراعياً الآخرين نتجحا في الحياة »

وكان الطفلان قد سمعا هذا آلاف المرات حتى فهماه ، وكان بوسعهما أن يردداه قبل أن يتعلما الصلاة .. لقد طبعت هذه العبارة على باب غرفة الأطفال ، وكانت أول عبارة تعلمنا قراءتها .. وصارت هذه هي قاعدة حياة (إدوارد ميلز) ..

أحياناً كان الزوجان (برامز) يغيران العبارة قليلاً فيقولان :

« كونا مخلصين نقيين منتجين .. ولن تحتاجا إلى أصدقاء .. »

كان الطفل (ميلز) مريحاً لكل من حوله ، وحين كان

يطلب الحلوى ولاينالها يصغى إلى العقل ، أما الطفل (بت) فكان يبكي حتى يحصل على الحلوى بأى ثمن .. كان الطفل (ميلز) يعنى بلعبه أما الطفل (بت) فكان يدمرها في وقت قصير ، ثم يتحول إلى جحيم حتى إتهم - كي يسود السلام المنزل - كانوا يقتعون (ميلز) الصغير بالتخلي عن لعبه لأخيه ..

وحين كبر الطفلان صار (جورج بت) مكلفاً .. لقد كان قليل الاهتمام بثيابه ، لهذا كان يرتدى ثياباً جديدة دائماً ، بينما لم تكن هذه هي الحالة مع (إدوارد ميلز) ..

ونما الطفلان سريعاً .. وظل (إدوارد) مريحاً ، بينما كان (جورج) همماً متزايداً ، وكان يكفى أن تقول له (إدوارد) :

« كنت أفضل ألا تفعل هذا .. »

سواء كنت تتحدث عن السباحة أو النزهة أو جمع الفراولة أو الذهاب إلى السيرك ، وكل الأشياء التي يحبها الصبية ..

كانت هذه الإجابة كافية له (إدوارد) لكن ليس له (جورج) ، الذي يصراً بعنف على ما يريد ، وبالنطع

لم يظفر طفل آخر بكل نزعات السباحة وجمع الفراولة
والذهاب إلى السيرك ، ولم يفز طفل آخر بوقت أمتع ..
وكان آل (برامز) لا يسمحان للطفلين بالسهر بعد
التاسعة .. فكان (إدوارد) يبقى في الفراش ، لكن
(جورج) كان يخرج من النافذة وينهز حتى منتصف
الليل ..

وكان مستحيلاً إقناع (جورج) بالتخلي عن عاداته
السبية ، إلا بالكثير من التفاح والبلى ..

لم يحتج (إدوارد) إلى جهد كبير في تربيته ، لأنه كان
طيباً يعتبره الجميع ممتازاً ، لكن آل (برامز) عاتوا
كثيراً في تربية (جورج) والدموع في عينيها ..

تدرجياً كبر الطفلان إلى سن العمل .. وأرسلهما
الأبوان لتعلم حرفة .. وقد ذهب (إدوارد) راضياً
لكن (جورج) كان غاضباً ..

عمل (إدوارد) بجد وإخلاص وكفاً عن أن يكون
عبئاً مالياً على آل (برامز) ؛ لكن (جورج) قرأ ،
وكلّف مسطر (برامز) كثيراً من المال والجهد كي
يجده .. لكنه هرب ثانية .. ثم هرب ثالثة ومعه بعض

الأشياء الثمينة ، وعانى مسطر (برامز) كثيراً ،
بالإضافة إلى محاولة إقناع المعلم بألا يرسل الصبي
إلى الشرطة بتهمة السرقة ..

وواصل (جورج) مهمة تحطيم القلوب العجوزين
الذين يحاولون أن يحميوا من الخراب ..

وكان (إدوارد) منذ طفولته موثقاً بمدارس الأحد ،
وجمع التبرعات للفقراء ، وبرامج منع التدخين ومنع
الشتائم البذيئة ، وكل الجمعيات المهمة بمعاونة البشر ..
لكن هذا لم يثر اهتمام أحد لأن هذا هو (الاتجاه
الطبيعي) للإنسان ..

وفي النهاية مات آل (برامز) ، وأوصيا في
الوصية بفخرهما وحبهما لـ (إدوارد) وبعقار صغير
لـ (جورج) لأنه كان يحتاج إليه ، بينما (إدوارد)
لا يحتاج إلى شيء كهذا لأن العناية السماوية
ترعاه ..

واشترط العجوزان أن يكون (إدوارد) شريكاً
لـ (جورج) ، وإلا ذهب العقار إلى مؤسسة خيرية
اسمها (جمعية أصدقاء المساجين) ..

وتوسل الزوجان لله (إدوارد) أن يأخذ مكاتهما
فى العناية به (جورج) وحمايته من نفسه ،
ويتواضع أذعن (إدوارد) ..

ثم يكن (جورج) شريكاً مفيداً .. كان سكيراً يعلن
جلده وعينه تلك الحقيقة غير السارة فى كل لحظة ..

وكان (إدوارد) يعشق فتاة حسنة ، وأحباً بعضهما
بإخلاص ، لكن (جورج) راح يلاحقها دامعاً متوسلاً ،
وفى النهاية ذهبت دامعة العينين إلى (إدوارد) وقالت
إن واجبها المقدس واضح أمامها ، ولن تدع رغبتها
الآتية تتدخل .. يجب أن تتزوج (جورج) المسكين
وتصلحه .. لسوف يحطم هذا قلبها ، لكن الواجب هو
الواجب ..

وهكذا تزوجت (جورج) وتحطم قلبها وقلب
(إدوارد) ..

وما إن شفى من آلامه حتى تزوج (إدوارد) بدوره ..
وظفرت الأسرتان بأطفال ، وحاولت (ماري) جهودها
كى تصلح زوجها لكن هذا كان عسيراً ، وكافح طبيون
كثيرون من أجل (جورج) ، لكنه اعتبر هذه الجهود
حقه وواجبهم ..

واتغمس فى القمار حتى تراكمت عليه الديون ، وذات
صباح استولت الشرطة على الشركة ، ووجد ابنا العم
نفسيهما دون مليم واحد ..

كانت الأوقات عصيبة ، واضطر (إدوارد) إلى أن
يعيش مع أسرته فى غرفة على السطح ، وراح
يجوب الشوارع بحثاً عن عمل ..

وأدهشه كم أن وجهه لم يعد يلقى أى ترحيب ،
وكيف أن اهتمام الناس به قد تبخر ..

ابتلع غمه ، وفى النهاية وجد عملاً فى حمل
القرميد على كتفه فى (غلق) لأعمال البناء ..

إلا أنه ظل محافظاً على التزامه نحو المؤسسات
الأخلاقية التى كان عضواً بها ..

لكن (جورج) كاد يموت من فرط الاهتمام به .. لقد
وجده ذات صباح ثملاً غارقاً فى المزراب ، فأنقذته
إحدى سيدات الجمعيات الخيرية ، واشتركت له فى
الجمعية ، وجعلته محترم المظهر ، ووجدت له وظيفة ..
ونشرت الصحف هذا الموضوع ..

واهتم الرأى العام بأمر البنائس ، وجاء كثيرون

يساعدونه كي يصلح ذاته ، ولمدة شهرين ظل طيب
الذکر ، ثم سقط ثملاً في المزراب مرة أخرى .. من ثم
ساد الحزن والغم ، إلا أن الأخوة النبلاء أنقذوه ثانية ،
ونظفوه وأطعموه وطرّبوا لموسيقا ندمه الحزينة ..

هكذا غرقت البلدة في الدموع السعيدة لأن جهودها
نجحت في تأهيل الوحش المسكين .. وأقيم احتفال كبير ،
وبعد بعض الخطب المؤثرة قال رئيس الجلسة في شجن :
- « سنرى مشهداً لن يراه كثيرون هنا بعيون جافة
من الدمع .. »

وتقدم (جورج) تحرسه النساء إلى المنصة ، حيث
بدأت عملية الاكتتاب لمساعدته فصفق الجميع ، وبكى
الجميع سروراً ..

وصار (جورج) بطل المدينة ونجمها ..

صحيح أنه كان يعود للزلل كلما مرت ثلاثة أشهر ،
لكن إنقاذه كان يتم في كل مرة ..

في النهاية راح يطوف البلاد محاضراً ، يحكى للناس
قصته مع التوبة ، وازدادت ثروته ..

كان الناس يتقون به حتى إنه استطاع استخدام اسم
مواطن معروف كي يسحب مبلغاً ضخماً من المصرف ،
وتكاثرت الضغوط من أجل تخفيف الحكم عليه ،
وذهب إلى السجن ثم خرج منه بعد عام ، لتلقاه
(جمعية أصدقاء المساجين) على الباب براتب
محترم ..

وكان (إدوارد) قد تقدم لهذه الجمعية من قبل
طالباً المساعدة ، لكن قضيته انتهت بسؤال واحد :
- « هل دخلت السجن من قبل ؟ »

وكان (إدوارد) قد صار صرافاً لمصرف البلدة ،
لكنه لم ينق (جورج) قط .. (جورج) انذى اعتاد
الغياب كثيراً عن البلدة لأسباب غامضة ..

وفي ذات مساء مطير دخل لصوص منتمون
مسلحون إلى المصرف ، فوجدوا (إدوارد) وحده
هناك .. أمروه أن يعطيهم الأرقام السرية للخزنة ..
فرفض .. هددوا حياته .. فقال لهم إن رؤساءه وثقوا
به وهو لن يخون هذه الثقة ، ويمكنهم قتله إذا
أرادوا ..

لهذا فتنه النصوص ..

وراح المخبرون يحققون في الحادث ، واتضح أن المتهم الأساسي هو (جورج بت) ..

سادت الشفقة على أرملة الصراف الميت وأطفائه اليتامى ، وتوسعت الجريدة المحلية لرؤساء المصارف أن يدعموا أسرته التي صارت بلا عائل .. وتم تجميع نحو خمسمائة دولار بمتوسط ٣/١ دولار لكل مصرف من مصارف الاتحاد ..

أما المصرف الذي يعمل به الصراف ، فقد أعرب عن امتنانه للشهيد ، بأن أعلن أن حسابات الرجل لم تكن دقيقة تماماً ، وأن هناك اختلافاً في العهدة ، ولربما ضرب نفسه بنفسه كي يدارى ما افتقره ..

تم تقديم (جورج) للمحاكمة ، وبدا أن الجميع نسي الأرملة واليتامى في قلقهم على (جورج) المسكين .. لكن كل المال والنفوذ لم ينجحاً في تبرئته ، وتم الحكم عليه بالإعدام ..

أرهقت طلبات العفو الحاكم ، تحملها إليه بنات صغيرات وعوانس عجوزات حزينات ، وأرامل ویتامى .. لكن لا .. لم يرضخ الحاكم لهذا ..

وامتلأت زنزانة (جورج) بالحسناوات والزهور والدموع والترانيم .. حتى جاء يوم المشنقة ..

وتم نقل جثة (جورج) في موكب فخيم في سيارة سوادء ، أمام جمهور باك من أفضل أبناء المنطقة ، وفي كل يوم كانت زهور جديدة توضع على قبره .. وعلى قبره حفرت هذه الكلمات :

- « لقد قاتل كما يجب أن يكون .. »

وعلى قبر الصراف الشجاع نقشت هذه الكلمات :

- « كن نقياً مخلصاً رزيناً منتجاً ، ولن .. »

ولا يعرف أحد مصير باقى العبارة .. لكن هكذا وجدوها ..

تعيش أسرة الصراف في ظروف شنيعة الآن .. ويقال .. لكن لا يهم .. هناك أناس طيبون يهتمهم الأمر عمل شجاع كعمله دون جائزة .. وقد قاموا بجمع ٤٢٠٠ دولار وبنوا كنيسة لذكراه .

★ ★ ★

خادم الجنرال (واشنطن) (١٠)

إن الجزء المثير من حياة هذا الرجل الشهير قد بدأ بعد موته ، ومعنى هذا أن التفاصيل المهمة في سيرته ظهرت بعد أول موت له ..

لم يسمع عنه أحد حتى تلك اللحظة ، ولكن من لاحظتها لم تكف قط عن السماع عنه ، كانت مهنته مرموقة جداً وأظن أن قصة حياته ستكون إضافة مهمة لأدب السير الأمريكي ، لهذا قمت بجمع هذه المادة من مصادر أصلية موثوق بها ، وهأنذا أقدمها للعالم ..

لقد استبعدت من هذه المعلومات كل ما هو مشكوك فيه ، وهدفى هو أن أقدم هذه السيرة للمدارس لتربية شباب بلادى ..

(*) ليست هذه قصة بالضبط بل هي مقال ساخر يتحكم على الصحف الشهيرة في أمريكا وقتها ، وللكاتب أعمال كثيرة مماثلة هي خليط بين القصة والمقال الساخر ..

كان اسم الخادم الشهير للجنرال (واشنطن) هو (جورج) ، وقد خدم سيده لمدة نصف قرن وفاز بثقته ومودته ، وبعد هذا كان واجبه المؤسف هو أن يوصل سيده المحبوب إلى القبر فى (بوتوماك) ..

وبعد عشر سنوات - عام ١٨٠٩ - مات هو نفسه ، مفعماً بالسنين والشرف ، ونعاه كل من عرفوه ..
تقول جريدة (بوستون جازيت) عن هذا الحدث :

(جورج) الخادم الأثير لـ (واشنطن) قد مات فى (رتشموند) يوم الثلاثاء الماضى عن خمسة وتسعين عاماً ، وهى سن ناضجة . لم يكن ثمة وهن فى قواه العقلية ، وقد ظل فكره متماسكاً حتى قبل موته ببضع دقائق . لقد كان موجوداً حين انتخب (واشنطن) رئيساً للجمهورية للمرة الثانية ، وكذلك فى جنازته ، ويذكر كل الأحداث المجيدة المرتبطة به .

من هذا التاريخ لم نسمع شيئاً عن الخادم العظيم ، حتى ١٨٢٥ حين مات ثانية .. خرجت جريدة فى (فيلادلفيا) تقول :

فى (ماكون توفى الأسبوع الماضى رجل زنجى يدعى
 (جورج) . وكان هذا الفقيد هو خادم (جورج واشنطن)
 المفضل . وقد مات بفعل الشيوخة عن ٩٥ عامًا . وظل
 يكامل قدراته العقلية حتى وفاته وكان بوسعه أن يتذكر
 انتخاب (واشنطن) رئيساً لفترة ثانية ، ودفنه وجزأته ،
 واستسلام (كورنواليس) ومعركة (ترمتون) وأحزان
 وادى (فروج) ..
 وقد ذهب الفقيد إلى القبر مع كل آل (ميكون) .

وفى الرابع من يوليو ١٨٣٠ وفى ١٨٣٤ و ١٨٣٦
 تم نشر الخبر ذاته تقريباً فى موضع الصدارة من
 صحف أخرى ..

وفى نوفمبر ١٨٤٠ مات الرجل ثانية ، وكتبت جريدة
 (سانت لويس ريبابليكان) فى الخامس والعشرين من
 الشهر :

أثر نفيس آخر من آثار الثورة قد رحل

توفى أمس فى هذه المدينة (جورج) الخادم الأثير
 لـ (جورج واشنطن) عن عمر ٩٥ عامًا ، وكان



من هذا التاريخ لم نسمع شيئاً عن الخادم العظيم ، حتى ١٨٢٥
 حين مات ثانية ..

يتمتع بذاكرة قوية ، وكان يذكر الانتخاب الأول والثاني لـ (واشنطن) واستسلام (كورنواليس) وموقعة (ترمتون) ومعاناة جيش الوطنيين في وادي (فروج) وإعلان الاستقلال وأشياء أخرى كثيرة ، إن قليلاً من البيض يستدعي موتهم الحزن الذي سببه موت هذا الزنجرى المسن ، وكانت جنازته عظيمة .

وفي السنوات العشر التالية بدأت أخبار وفاة جديدة للرجل تظهر في أرجاء القطر ، وظلت تظهر في مواضع مهمة من صحف عديدة ، وبنيجاح تام .. إلا أنه في خريف عام ١٨٥٥ مات الرجل مرة أخرى ، وتقول صحف (كانيفورنيا) :

بطل عجوز قد مات

مات في (داتشفلات) (جورج) خادم الجنرال (واشنطن) عن عمر خمسة وتسعين عاماً ، إن ذاكرته لم تخذله حتى النهاية ، وكان يستطيع أن يتذكر أول وثاني انتخاب لـ (واشنطن) ، وموقعة (كورنواليس) و (باتكرهيل) وإعلان الاستقلال وهزيمة (برادوك) . ويقال إن عشرة آلاف مواطن حضروا الجنازة ..

أما آخر مرة مات فيها (جورج) فكانت عام ١٨٦٤ ، وحتى أسمع العكس أفترض أنه مات حقاً في تلك المرة ، وقد كتبت جريدة (متشيجان) عن هذه الأحداث الأسيفة :

رمز آخر من رموز الثورة قد ذهب

(جورج) خادم (واشنطن) قد توفي في (دترويت) الأسبوع الماضي . عن سن خمسة وتسعين عاماً ، ولم تضطرب ذاكرته قط حتى النهاية ، وكان يذكر أول وثاني انتخاب لـ (واشنطن) واستسلام (كورنواليس) وموقعة (ترمتون) وإعلان الاستقلال وهزيمة (برادوك) ، وإلقاء صناديق الشاي في خليج (بوسطن) ، وهبوط الحجاج .

لقد مات محترماً ، ومشى في جنازته عدد هائل من المواطنين .

لقد ولّى الخادم المخلص العظيم .. لن نراه ثانية حتى يعود .. لقد انتهى من مهنة الصوت التي يمارسها بروعة ، وهو الآن ينام في سلام كما ينام كل من استحق راحته ..

لقد كان في كل الأحوال رجلاً مرموقاً ، وكلما عاش
أكثر كلما ازدادت ذاكرته قوة وشمولاً ، ولو مات ثانية
فلا بد أنه سيتذكر في هذه المرة اكتشاف أمريكا ذاتها ..
أعتقد أن هذه السيرة التي قدمتها له كاملة تماماً ،
برغم أنني أفترض أنه مات مرة أو مرتين في أماكن
غامضة فشلت الصحافة في معرفتها ..

وكل ما أجدده في ملاحظاتي عن موته هو أن الرجل
كان مُصرّاً - في كل المقالات - على أن يموت في
الخامسة والتسعين .. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً ..
ربما فعله مرة أو مرتين ، لكنه لا يستطيع أن يظل في
سن خمسة وتسعين للأبد .. من المفترض أن يكون
عمره ١٥١ سنة حين مات آخر مرة .. لكن سنه لم
تمش بنفس معدل ذاكرته ..

لقد تذكر - حين مات آخر مرة - هبوط الحجاج الذي
حدث سنة ١٦٢٠ .. لو حدث هذا وهو في سن العشرين
فمعنى هذا أن عمره كان ٢٦٠ سنة حين ترك الحياة
نهائياً ..

لقد انتظرت كثيراً لأرى إن كان سيموت ثانية ،
حتى أقدم سيرة حياته للأمة الثكلى ..

■ ملحوظة : أرى من الأوراق أنه مات مرة أخرى
في (أركنساس) ، ومعنى هذا أن ذلك المخادع مات
ست مرات ، وفي كل مرة في مكان جديد .. لقد كف
الآن عن أن يكون موضوعاً جديداً .. لقد ولى سحره ..
لقد تعب منه الناس .. فدعوه يرقد ..

إن هذا الزنجي حسن النية لم يكلف ستة مجتمعات
تكاليف دفنه ، ويجعل عدة عشرات من الألوف يتبعونه
إلى قبره كل مرة ..

دعوه يرقد للأبد الآن ، واجعلوا تلك الصحف تتلقى
أكبر توبيخ في حياتها ، وأخبروا العالم أن خادم
(واشنطن) قد مات ثانية !

★ ★ ★

إلهام ابن عامين ..

يبدو أن كل الرضع لديهم عادة قبيحة وقحة هي أن يقولوا أشياء ذكية في كل الأحوال ، وخاصة تلك المواقف التي يفترض ألا يقولوا فيها شيئاً على الإطلاق ..

ومن العينات المنشورة لهذه الأشياء الذكية ، أن جيل الأطفال الحالي أفضل من البلهاء بقليل ، ولا بد أن آباءهم ليسوا أفضل من أطفالهم إلا بقليل ..

يبدو أنني أتحدث بشيء من الحرارة ، ولا أقول بنوع من الضغينة الذاتية .. ولا أظن أن سبب هذا هو الغيرة لأنني لم أقل شيئاً ذكياً وأنا رضيع .. حاولت مرة أو اثنتين لكنني فشلت ..

لم يتوقع أبواي أن أقول شيئاً ذكياً لهذا أهملوني مرة ، وضربوني على ردفى باقي المرات ..

لكنني أشعر بقشعريرة ويتجمد دمي ، كلما فكرت فيما عساه كان يحدث لو قلت شيئاً ذكياً مما يقوله

أطفال اليوم وسمعتني أبي .. ولو كان قد سلخني حياً لبدأ له هذا ليلاً عقابياً نحو شخص آثم كهذا ..

كان رجلاً صارماً غير مبتسم ، يكره كل علامات عدم النضج .. ولو قلت له شيئاً كهذا فبالتأكيد كان سيدمرني .. حتماً كان سيفعل إذا أتحت له الفرصة ، لكنها لم تتح له لأنني كنت أمك الحصافة التي تجعلني أبتلع بعض سم (الستركنين) أولاً ثم أقول أشياءي الذكية ..

إن تاريخ حياتي قد تلطخ فقط بدعاية لفظية واحدة سمعها أبي وبحث عني في أربعة أو خمسة متاجر راعياً في قتلي ، ولو كنت ناضجاً وقتها لعذرته لكنني كنت طفلاً ، ولم أستوعب شقاه مما حدث ..

ذات مرة قلت بعض هذه (الأشياء الذكية) وكادت تحدث انفجاراً بين أبي وبينى ..

كان أبي وأمي وعمي (أفرايم) وزوجته وأخران ، وكانت المحاوراة تدور حول اسم لي .. وكنت على الأرض ألعب بعضاً مطاطية ، لأنني كنت قد تعبت من قطع أسناني بأنامل الناس ..

قطب أبى وبدا السرور على أمى ، وقالت عمى :

- « يا له من طفل عزيز ! »

قال أبى :

- « إن (إيزاك) و (جاكوب) اسمان جيدان .. »

وافقت أمى وقالت :

- « ما من أسماء أفضل ؟ »

قلت :

- « حسن .. هذان اسمان مناسبان لكما أنتما .. »

ناولينى (الشخصىخة) من فضلك ، فلا يمكن أن أمضغ

العضاضة طيلة اليوم .. »

وحتى هذه اللحظة لم ألقى التشجيع الذى يلقاه

الأطفال الأذكىاء الآخرون . لقد قطب أبى وبدا

الحزن على أمى ، وبدا أن عمى يفكر فى أننى ربما

تعاديت كثيراً ..

عضضت العضاضة وهشمت (الشخصىخة) فوق

رأس القط ، لكننى لم أقل شيئاً ..

هل لاحظت مدى المعاناة التى تسببها لك محاولة شق

أسنانك بعض أنامل المربية ؟ وكيف أنه مرهق أن تحاول

شق أسنانك بأصبعك الكبير ؟ بالنسبة لى أشعر أن هذه

الأشياء حدثت أمس ..

لكنى أحمى عن الموضوع ..

كنت هناك ألعب بعضاضتى ، وأظن أننى نظرت إلى

ساعة الحائط فلاحظت أنه خلال ساعة وخمس وعشرين

دقيقة سيكون عمى أسبوعين ، وخطر لى أننى فعلت

القليل على أستحق كل السعادة التى تنتظرنى عما قريب ..

قال أبى :

- « إن (أبراهام) اسم جيد .. لقد كان اسم جدى

(أبراهام) .. »

وقالت أمى :

- « إنه اسم جيد بالفعل .. لىكن هذا واحداً من

أسمائه .. »

قلت :

- « إن (أبراهام) يناسب اسم موثق عقود .. »

قال أبى :

- « إن اسم (صمويل) جيد .. »

وضعت ما فى يدي إلى جوار المهد ، حيث ساعة
عمى القضية ولعبة الكلب والجندي القصدبرى ، وكل
الأشياء التى اعتدت أن أتفحصها وأأملها وأهشمها
حين أطلب المتعة الكاملة ..

قلت لنفسى إنه لو كانت الأمور ستسوء أكثر فأنا
مستعد ، وبصوت عال قلت :

- « أبى .. لا أستطيع أن أحمل اسم (صمويل) .. »

- « ولماذا يا بنى ؟ »

- « إن لدى نفورا خاصا من هذا الاسم .. »

- « إن رجالا عظيمى الشأن حملوا اسم (صمويل)

يا بنى .. »

- « مازال على أن أعرف أولهم .. »

ودارت مشادة عنيفة بيننا ، وحين انتهت كنت قد
حملت اسم (صمويل) وضربة قوية ، وبوساطة هذا
الإذعان هدا غضب أبى ، وتجاوزنا سوء الفهم ، الذى

كان سيوتر علاقتنا للأبد لو أننى تخليت عن التعقل ..

لكن - بعد ما عرفنا هذا الموقف - ماذا كان أبى
سيفعل لو قلت شيئا سخيفا من الأشياء التى يقولها
الأطفال الذين عمرهم عامان الآن ؟ فى رأى كان الأمر
سينتهى بإحدى جرائم قتل الرضع فى أسرتنا .

* * *

قصة رجل من (كاليفورنيا) ..

منذ خمسة وثلاثين عامًا كنت أجول في (سناتيلوز) ، أضل طريقى طيلة اليوم ، وأبعثر ما يملأ القبعات من الغبار هنا وهناك ، متوقعًا في كل لحظة أن أقع على خبطة ثرية لكنى لا أجدها أبدًا ..

كانت المنطقة لذيذة لطيفة ملأى بالغايات ، وفي وقت ما كانت مزدحمة ، لكن الناس قد اختفوا الآن وصارت الجنة الخلابة مكانًا منعزلاً .. لقد هجرها الناس بعد حملة التنقيب عن الذهب ..

يومًا ما كانت هنا مدينة مزدحمة لها صحف ومصارف ومطافئ وعمدة .. لم يعد منها الآن سوى مرج زمردي بلا علامة واحدة على أن حياة كانت هناك ..

سرت قرب الريف عبر الدروب المترية .. ومن حين لآخر كنت أرى أجمل الأكواخ وأكثرها راحة تلتف حولها الأغصان ، حتى لتختفى الأبواب والنوافذ عن العين

تمامًا .. مما يوحي بأن هذه بيوت هجرها الباحثون عن الذهب منذ أعوام ، ولم يستطيعوا أن يبيعوها أو يمنحوها لأحد ..

ومن حين لآخر كنت ترى أكواخًا خشبية من عهود التنقيب الأولى ، بناها أوائل الباحثين عن الذهب قبل عصر بناء الأكواخ الجميلة ..

وفي بعض الأحوال كانت هذه الأكواخ مسكونة ، ويمكنك أن تثق أن ساكنها هو بنفسه الرائد الذى بناها .. ويمكنك كذلك أن تثق أنه كان يملك فرصة العودة لوطنه ثريًا لكنه لم يفعل .. فقد ما له وقرر أن يقطع كل علاقة له بالأقارب والأصدقاء من وقتها ، شاعرًا بالخزي والفشل .. وهكذا يصير شأنه شأن من مات ..

وحول (كاليفورنيا) فى ذلك الزمن ، كنت تجد مجموعة من هؤلاء الموتى الأحياء الذين تخلى عنهم الكبرياء ، وشاب شعرهم ، والذين كانت خواطرهم كلها مزيجًا من الأسف والحنين .. أسف على العمر الذى ضاع ، وحنين للخروج من المعركة والانتهاى منها ..

كانت أرضاً منعزلة لا صوت فيها .. لكن أزيز
الحشرات بقى .. لأشياء يجعل معنوياتك مرتفعة
أو يجعلك سعيداً بالحياة ..

★ ★ ★

لذا حين قابلت هذا المخلوق عصراً ، شعرت بالرضا
وارتفاع معنوياتي .. كان في الخامسة والأربعين يقف
على باب أحد الأكواخ التي وصفتها لك ..

لكن الكوخ لم يكن مهجوراً .. كان منظره يدل على
وجود من يعنى به ويدلله ، وكان فناؤه الأمامي حديقة
من الأزهر النضرة ..

دعاني الرجل وطلب إلى أن أعتبر نفسي في داري ،
وكانت هذه عادة البلاد ..

كان جميلاً أن أجد نفسي في مكان كهذا ، بعد أسابيع
من الحياة في أكواخ عمال المناجم ، بأرضيتها القذرة
والأسرة غير المرتبة ، والأطباق القصديرية والفون
والقهوة السوداء .. ولا أمانة للزينة إلا بعض صور من
الصحف للحرب في الشرق يصفونها على الجدران ..

لم أصدق أنني سأسعد إلى هذا الحد إذ أرى ورق
حائط وسجادة وكتباً ومزهريّة صينية ، ومئات اللمسات
التي تبعثرها يد المرأة في المنزل ، وهي أشياء يراها
الإنسان دون أن يدرك أنه يراها ، لكنه يفقدها إذا
هي أخذت منه ..

كانت السعادة التي في قلبي قد ظهرت في وجهي ،
ورأها الرجل فقال :

- « هذه لمساتها .. لقد فعلت كل شيء بنفسها .. »

ونظر حوله بنظرة هيام مفتون ..

كانت هناك زينة يابانية موضوعة فوق إطار إحدى
الصور ، فأعاد ترتيبها بتأمل حذرة ، وتراجع للوراء
أكثر من مرة كي يفقد التأثير ، ثم قال :

- « إنها تفعل ذلك .. لا يمكنك أن تعرف ما ينقص هذا

الإطار حتى تفعل هي ذلك .. لا يمكنك الفهم قبل أن
يتم الأمر .. لكنك لا تستطيع أن تعرف القانون المتحكم
في هذا .. شيء أشبه باللمسات التي تضعها الأم على
شعر الطفل بعد تمشيته .. لقد راقبتها كثيراً وأستطيع
أن أفعل ما تفعله هي ، برغم أنني لا أعرف قانون ذلك ..
لكنها تعرف القانون ..

تعرف (لماذا) و(كيف) كليهما .. لكننى لا أعرف
(لماذا) ولا أعرف (كيف) .. «

واقفادنى لغرفة النوم حيث أغسل يدى ..

إنها غرفة نوم لم أر مثلها منذ أعوام .. لحاف
أبيض .. وسادات بيضاء .. بساط .. ورق حائط ..
منضدة زينة .. مرآة .. أدوات تجميل .. ثم حوض
غسيل به ماء وإبريق وصابون .. وحوالى ستة من
المناشف النظيفة جداً والبيضاء ، حتى إن المرء
لا يستطيع استعمالها دون أن يشعر بأنه يدنسها ..

قال بكلمات ممتدة :

- « كل هذا عملها .. لا يوجد شيء هنا لم يمس
يدها .. »

كنت أجفف يدى وأأمل الغرفة ، كما يفعل المرء
حين يرى مكاناً جديداً ، حيث كل ما يراه يريحه ..

وأدركت بطريقة لا يمكن تبريرها أن هناك شيئاً هنا
يريد الرجل أن أراه بنفسى .. وهو يساعدى بتلميحات
من عينيه ، لذا بحثت حولى مراراً وفى النهاية عرفت
أننى أنظر مباشرة إلى الشيء ..

فرك يديه فى مرح وصاح :

- « عرفت أنك ستجدها ! إنها صورتها ! »

اتجهت إلى الإطار على الجدار ، وهو مصنوع من
خشب الجوز ، وبه صورة عتيقة من التى كانت تطبع
على سطح من فضة ، تمثل أجمل وجه طفولى رأيت
فى حياتى ..

- « فى عيد ميلادها الأخير كانت تسعة عشر عاماً ،
وهو يوم زواجنا .. وحين تراها .. آه .. انتظر حتى
تراها .. »

- « ومتى تأتى ؟ »

- « إنها تزور أهلها .. إنهم يعيشون على بعد
أربعين أو خمسين ميلاً .. لقد سافرت منذ أسبوعين .. »
- « ومتى تعود ؟ »

- « اليوم هو الأربعاء ؟ ستعود يوم السبت فى
التاسعة مساءً على الأرجح .. »

شعرت بخيبة أمل حادة ، وقلت :

- « أنا أسف .. سأكون قد رحلت .. »

- « لا .. لن ترحل .. سيخيب أهلها هذه المخلوقة
الجميلة .. »

ولو أنها قالت لي هذه الكلمات لما تأثرت بهذا
القدر .. كان لدي شوق عارم كي أراها ، حتى إنني
شعرت بالخوف ، وأزمنت أن أترك هذا المكان من
أجل راحة بالي ..
هنا قال لي :

- « كما ترى ، إنها تحب أن ترى الضيوف ..
الأشخاص الذين يعرفون أشياء ويستطيعون الكلام ..
إن هذا يسعدها .. إنها تهوى معرفة كل شيء ويمكنها
الحديث كطير .. والكتب التي تقرأها ! إنك ستذهل ..
لا تذهب .. إنه وقت قصير جداً .. »

عاد بعد قليل بصورة صغيرة لها ووضعها أمامي ،
وقال :

- « هلم .. قل في وجهها إنك كنت تستطيع البقاء
لكنك لم تفعل .. »

أدى هذا إلى تحطيم قدرتي على التدبير ، وقررت أن
أخاطر وأبقى ..



- « ومتى تأتي ؟ »

- « إنها تزور أهلها .. إنهم يعيشون على بعد أربعين أو خمسين ميلاً .. »

قال (توم) :

- « إننى عجوز وأى إحباط يجعلتنى أبكى يا (هنرى) ..
حسبتها هى نفسها عندك فلم أجد إلا خطاباً .. »

- « الجميع يعرف أنها آتية السبت القادم .. »

- « السبت ؟ كيف نسيت ؟ كلنا نستعد لهذا ..
سأذهب الآن ولن أعود إلا حين تكون هى فى الدار أيها
العجوز .. »

وفى ساعة متأخرة من عصر الجمعة ، جاء عامل
منجم مخضرم آخر من كوخه ، وقال :

- « إن الأطفال يرغبون فى أن يأتوا ليمرحوا مع
(المدام) مساء السبت ، لو لم تكن مرهقة بعد
الرحلة .. »

- « مرهقة ؟! اسمع يا رجل ! أنت تعرف أنها
مستعدة للسهر ستة أسابيع من أجل أطفالك .. »

ثم إن القادم - ويدعى (جو) - طلب سماع خطابها ..

فى هذه الليلة دخنا الغليون الذى يسبب الدوار ،
وتحدثنا عنها ..

جاء الخميس ورحل ، وقرب الغروب جاء عامل
منجم من الرواد رحب بى بحرارة ، وقال :

- « لقد مررت كى أسأل عن المدام الصغيرة ،
ومتى ستعود ؟ »

قال مضيفى :

- « لدى خطاب منها .. هل تريد سماعه ؟ »

- « نعم .. لو لم تتضايق يا (هنرى) .. »

أخرج (هنرى) الخطاب من حافظته ، وقال إنه
سيتجاوز بعض الأجزاء الخاصة ثم راح يقرأ .. كان
قطعة من الأدب العاطفى المنعش ، وينتهى بتحيات حارة
للأصدقاء والجيران ..

فما إن فرغ من القراءة حتى قال :

- « هلم يا (توم) .. أبعد يدك عن عينيك ! أنت

سريع التأثر .. »

جاء عصر السبت ، ووجدت أننى أخرج ساعتى
أكثر من اللازم ، فقال لى (هنرى) :

« أنت تظنها ستتأخر .. أليس كذلك ؟ »

شعرت بالحرج ، فقلت إن هذه عادة عندى ، لكنه كان
متوتراً بدوره ، واصطحبنى إلى بداية الطريق ليرمق
المسافة عن بعد ، وقال :

« أعرف أنها ستكون هنا فى التاسعة مساءً ،
لكنى بدأت أقلق .. أشعر أن شيئاً قد حدث .. أنت
تشعر بذلك أليس كذلك ؟ »

كلمته بغشونة ، فاتكمش ونظر لى بحزن وخجل ..

جاء أحد المخضرمين الآخرين قبل المساء ، وطلب
من (هنرى) أن يقرأ له الخطاب ، وراح يتحدث فى
موضوعات مسلية محاولاً أن يبدد زعر صاحبه ..

وقال له :

« إنها وعدت بالمجيء فى التاسعة .. وهل خيبت
أمك أو خذلتك من قبل يا (هنرى) ؟ لسوف تبرأ
بوعدها .. هذا مؤكد كما أنك مولود .. »

وبعد قليل وصل (توم) و (جو) ، وراحت الأيدي
ترين المنزل بالزهور .. وفى التاسعة قرر الرجال أن
يعزفوا بألات موسيقية أحضروها ، وكانت هذه الأدوات
كماتاً صغيراً و (باتجو) و (كلارينيت) ، وراحوا يعزفون
موسيقا راقصة يضيفون لها إيقاعاً بأقدامهم ..

وعلى الباب وقف (هنرى) يرمق الطريق وجسده
يرتجف من فرط معاناة عقلية .. لقد شرب مراراً
نخب صحة زوجته .. لكنه قلق ..

ومن جديد أفعم (جو) الأقداح ، ومددت يدي إلى
أحدها ، لكن (جو) همس لى فى « زم :

« دع هذا .. وخذ قدحاً آخر .. »

شرب (هنرى) قدحه ، ونظر إلى الساعة وقال :

« ساعدونى .. أريد أن أرقد .. »

ساعدوه على الرقاد - وهو يترنج - كى ينام على
الأريكة ، لكنه راح يتكلم كما يتكلم النائم :

« أسمع صوت الخيول .. هل جاعوا ؟ »

قال (جو) :

- « لقد جاء (جيمي فاريش) ليقول إن المجموعة تأخرت ، لكنهم أتون .. إن حصانها يعرج لكن هذا لن يؤخرها أكثر من نصف ساعة .. »

- « أنا سعيد لأن مكروها لم يحدث .. »

وغرق في النوم قبل أن تنتهي الكلمات ..

نزع الرجال ثيابه ، وتأهبوا للرحيل فصحت :

- « لا تذهبوا يا سادة ، إنها لا تعرفني .. أنا غريب .. »

تبادلوا النظرات ، ثم قال (جو) :

- « هي ؟ المسكينة .. إنها ميتة منذ تسعة عشر

عاماً .. »

- « ميتة ؟ »

- « هذا أو أسوأ .. لقد ذهبت لزيارة أهلها بعد

ستة أشهر من الزواج ، وعلى بعد خمسة أميال من

هنا هاجمها الهنود ، في مساء السبت وهي عائدة ،

ولم يسمع عنها أحد من وقتها .. »

- « وهل جن نتيجة لذلك ؟ »

- « لم ير لحظة عقل واحدة من ساعتها .. لكن

حالته تسوء في الوقت ذاته من كل عام ، وعندها نبدأ في التردد عليه ، ونشجعه ونسأله عن أخبارها ، ونزين البيت بالزهور ، فعلنا هذا تسع عشرة مرة .. في أول عام كنا سبعة وعشرين ، لكن لم يبق منا الآن سوى ثلاثة ..

« لقد خدرناه وإلا سيصيبه هياج رهيب .. ونسوف تهدأ حالته غداً ويعتقد أنها معه ، حتى تحين اللحظة ذاتها العام القادم ..

« رياه ! لقد كانت عزيزة علينا بحق ! »

★ ★ ★

واتطلق إلى العالم بحثاً عن المسرات التي ينعم بها
الشباب ، لكن كل واحدة منها كانت مخيبة للأمل
وخاوية ، وكانت كل مسرة منها تملؤه خزيًا حين
ترحل ، وفي النهاية قال :

« يا لتلك الأعوام التي أضعتها ! لو كان بوسعي
الاختيار لاخترت بحكمة .. »

هبات الحياة الخمس

الفصل الأول

عند فجر الحياة جاءت جنية طيبة تحمل سنتها ،
وقالت :

« ها هي ذى الهبات .. خذ واحدة واترك الباقيات ..
كن حذرًا وأحسن الاختيار .. ولتلتق بحكمة لأن واحدة
منها ذات أهمية .. »

كانت العطايا خمسًا هي : الشهرة والحب والسرور
والثروة والموت ..

في حماسة قال الشاب :

« لا داعي للاختيار .. »

واختار السرور ..

الفصل الثانى

ظهرت الجنية وقالت :

- « أربع من الهبات باقية ، فاختر واحدة أخرى ،
وتذكر أن الوقت بجرى وواحدة منها ثمينة .. »

فكر طويلاً ثم اختار الحب ، ولم ير الدموع التى
ملأت عينى الجنية ..

بعد أعوام طويلة طويلة ، جلس الفتى فى منزل خاو
أمام تابوت ، وقال لنفسه :

- « قد رحل الأحياء الواحد تلو الآخر وتركونى ،
والآن ترقد هنا أعزهم وآخرهم .. لقد مرت بى كآبة
تلو كآبة ، ومقابل كل ساعة من السعادة فإن الحب
- ذلك التاجر الغادر - قد جعلنى أذفع ألف ساعة من
الحزن ..

وإننى لأمقته من قلب قلبى .. »

★ ★ ★

الفصل الثالث

- « اختر ثانية .. »

كانت هذه هى الجنية تتكلم .. وأردفت :

- « لقد علمتك السنون الحكمة أو هكذا ينبغى أن
يكون .. بقيت ثلاث هبات ، وواحدة منها ذات قيمة ،
فتذكر واختر بعناية .. »

فكر الرجل قليلاً ثم اختار الشهرة ، فتنهدت الجنية
ورحلت ..

مضت الأعوام ، وها هو ذا الرجل يجلس وحيداً فى
الظلام يفكر :

- « لقد ملأ اسمى العالم وامتدحه الجميع على كل
لسان ، وراق لى هذا نفرة .. ألا ما أقصرها ! ثم جاء
الحسد ثم الانتقاص من قدرى ثم الافتراء فالمقت .. ثم
جاء الاتهام ، فالسخرية التى كانت بداية النهاية ، ثم
جاءت الشفقة التى هى جناية الشهرة ..

« إنها مرارة وشقاء الشهرة .. الشهرة هدف الأوحال
فى نروتها ، وهدف المقت والشفقة عند رحيلها .. »

★ ★ ★

الفصل الرابع

وجاء صوت الجنية تقول :

« اختر ثانية .. لقد بقيت هبتان .. لا تينس .. فى
البدائية كانت هبة ثمينة واحدة ، وهى ما زالت هناك .. »

قال الرجل :

« إنها الثروة التى هى القوة ! كم كنت أحمق !
هكذا تستحق الحياة أن تعاش .. سأبذر وأبهر العيون ..
كل هؤلاء الساخرين سيزحفون فى الوحل أمامى ،
وسيطعمون قلبى الجائع بجسدهم .. ستكون عندى كل
المتع والذائد .. كل مفاتن الجسد وكل مسرات الروح ..
سأسترى كل شىء .. سأسترى الاحترام والإذعان
والتقدير .. وكل مجد رخيص فى الحياة يمنحه لى
سوق العالم بالغبى التفاهة .. »

« لقد أضعت كثيراً من الوقت ، واخترت اختيارات

خاطئة ، لكنى كنت جاهلاً .. »

وبعد ثلاثة أعوام جنس الرجل يرتجف فى غرفة على
السطح ، هزياً شاحباً أجوف العينين ، يرتدى الأسمال
يمضغ كسرة خبز مغمغماً :

« سحقا لهبات الحياة ! لتسخريات والأكاذيب

المزخرفة .. إنها ليست هبات بل هى قروض ..

السعادة .. الحب .. الشهرة .. الثراء .. كلها أقنعة

للحقائق الدائمة : الحزن .. الألم .. العار .. الفقر ..

« لقد قالت الجنية حقاً .. لم يكن لديها سوى هبة

واحدة ثمينة .. يا لتفاهة ورخص كل ما عرفت

بالنسبة للهبة العزيرة الناطيفة ، التى تطوى تلك الآلام

التي تضطهد الجسد ، وأنعار والأحزان اللاتى يأكلن

القلب والروح .. تطويها فى نوم بلا أحلام .. إنسى

مرهق وأريد الراحة .. فلتجلبها لى ! »

الفصل الخامس

سيرة ذاتية ساخرة ..

ألح على اثنان أو ثلاثة أن أكتب سيرتي الذاتية ،
وقالوا إنهم سيقرونها لو كان عندهم وقت فراغ ،
فأذعنت لهذا الإلحاح الجماهيري المحموم وها هي ذي
قصة حياتي ..

إن بيتنا بيت نبيل نه أصول عريقة ، وأقدم أجدادي
الذين ينتمى لهم آل (توين) هو صديق للأسرة يحمل
اسم (هيجنز) . كان هذا في القرن الحادي عشر حين
كان قومنا يعيشون في (أبردين) بمقاطعة (كورك)
بإنجلترا .. أما لماذا تنسب الأسرة كلها إلى اسم الأم
بدلاً من اسم (هيجنز) فنقر لم يرغب أحد في حنه ..
إنه سر قديم ساحر يجدر بنا أن نتركه وشأنه^(*) ..
إن كل الأسر العريقة تفعل ذلك ..

جاءت الجنية ومعها الهبات الأربع ، لكن (الموت)
كان ناقصاً ، وقالت :

- « لقد أعطيتك نطفل رضيع كان جاهلاً ، ووثق
بي كي أختار له الاختيار الأفضل .. »
قال لها :

- « يا لتعاستي ! وماذا بقي لي أنا ؟ »
- « الشيء الذي لا يستحقه حتى من هو مثلك ..
إنه ذلك الألم المشين للشيخوخة ! »

(*) المقال ساخر بالطبع ، لأن (مشارك توين) اسم مستعار
للكاتب كما قلنا في المقدمة ا

كان (آرثر توين) رجلاً عظيم الشأن يستجدي المارة على الطريق في زمن (ويليام روفوس) .. وفي سن الثلاثين دخل أحد الملاحى الإنجليزية القديمة يدعى (نيوجيت) ، ولم يعد من هناك .. »

أما (أوجستوس توين) - عام ١١٦٠ - فكان رجلاً مرحاً .. اعتاد أن يسن سيفه القديم ، ويتجه إلى مكان مظلم مناسب ، ويولجه في عابري السبيل كي يراهم يتخافزون .. كان كثير المرح مفضولاً على الدعاية ، لكنه تمادى بعض الشيء ..

وفي آخر مرة شوهد فيها يمارس هذه التسلية ، انتزع الحاكم أحد طرفيه ، وعلقه على مكان جميل عال في (تمبلار) حيث يسلى الناس ..

ثم أماتى عام تظهر شجرة أسرتى مجموعة من الجنود النبلاء والرجال ذوى الأرواح الخلاقة .. كلهم كان يذهب للمعركة مغنياً خلف الجيوش ، ثم يعود الجيش فيهرولون أمامه ..

في القرن الخامس عشر كان لدينا (بوتوين) الذى سمّاه الناس (المتعلم) .. وكان يملك خطأ جميلاً ،



ألح على اثنين أو ثلاثة أن أكتب سيرتى الذاتية ، وقالوا إنهم سيقرونها لو كان عندهم وقت فراغ ..

وكان يوسعه تقليد أى خط .. إلا أنه كلف مرة بتحطيم
صخرة ضخمة ، وأدت خشونتها إلى تحطيم يده ، وقد
استمتع بمهنة تحطيم الصخور بعد ذلك ، ومارسها
لمدة اثنين وأربعين عاماً ، وقد مات فى أثناء العمل ..

ما كان ينتهى من عقد تكسير صخور ، حتى تعطيه
الحكومة عقداً جديداً .. وكان رفاقه يحبونه ، وكان
عضواً مهماً فى مجتمعهم الكريم .. الذى كان يطلق
عليه Chain Gang (أى المكبلين بالسلاسل للعمل فى
الأشغال الشاقة) ..

كان يقص شعره بعناية ، ويحب ارتداء الثياب
المخططة ، وكان موته خسارة لوطنه لأنه كان محترفاً ..

بعد أعوام ظهر (جون مورجان توين) ، وقد جاء
إلى البلاد مع (كولومبوس) عام ١٤٩٢ مسافراً على
سفينته .. ويبدو أنه كان ضيق الخلق طينة الرحلة ، وكان
يطلب الرنجة الطازجة على الإفطار ، ولم يمر يوم لم
يصعد فيه إلى ظهر السفينة ، ويشمخ بأفنه فى السماء
مزمجراً ، قائلاً إنه متأكد من أن (كولومبوس) لا يعرف
إلى أين هو ذاهب ، وبالتالي لم يذهب إلى هناك من قبل ..

وحين دوت الصرخة الخالدة : « الأرض ! » ، وحين
التهبت الحماسة فى كل القلوب ، لم يتلأثر قلبه ..

لقد تأمل المشهد عبر المنظار المقرب المتسخ ، وقال :
- « فلتذهب الأرض إلى الجحيم .. إن هذا طوف ! »

وحين ركب هذا المسافر الغريب السفينة ، لم يكن
معه سوى جريدة قديمة لفا فيها منديلاً عليه حرفاً
(د . ج) ، وجورباً من القطن عليه حروف (ل . و . ج) ،
وجورباً من الصوف عليه حروف (و . ن . ر) .. إلا أنه
فى أثناء الرحلة ظل قلقاً بخصوص (متاعه) أكثر من
قلق كل المسافرين مجتمعين ..

وفى العواصف كان عليهم أن يكتموه ، لأن صراخه
بخصوص (متاعه) كان يجعلهم عاجزين عن سماع
الأوامر ..

وحين رست السفينة كان (متاعه) الآن يتكون
من ثلاثة صناديق ، لكنه أصر على أن (متاعه) قد
سرق وصمم على تفتيش المسافرين .. كان هذا أكثر
من اللازم لأنهم ألقوه فى البحر ..

وانتظروا أن يظهر ثانية ، لكن لم تبد منه فقاعة
واحدة .. ولاحظوا فى دهشة أن مرساة السفينة اختفت ،

وأن حبل المرساة يتدلى وحده إلى الجانب ، ويمكننا
أن نقرأ ما حدث في سجل السفينة :

« أدركنا أن هذا التراكب المزعج قد سرق المرساة ..
وباعها إلى السكان المتوحشين داخل البلاد .. »

إلا أن هذا التجذ كان يملك صفات تبيلة ، ونذكر
الأذهان هنا بأنه كان أول رجل يهتم بعملية تحضر
الهنود .. لقد بنى لهم سجنًا مريحًا ومشنقة ، وهنا
تصير المذكرات أقل وضوحًا وصراحة .. وتنتهي فجأة
بأن تذكر أن جدى هذا قد ذهب (ليرى المشنقة تؤدي
عملها مع أول رجل أبيض فى أمريكا) ، وهناك أصيب
بشيء أدى لموته ..

أما الحفيد الأكبر له فكان شهيرًا عام ١٦٠٠
وشيء ما .. وقد اشتهر فى الصحف باسم (الأدميرال
العجوز) . كان يقود السفن السريعة مسلحًا ومعه
رجال كثيرون . وقد أدى خدمة عظيمة فى (تسريع)
الحركة التجارية فى البحر .. فالسفن التى كان يلاحقها
كانت تقطع المحيط فى وقت قياسي .. أما إذا تأخر أحد
القوارب لسبب ما ، فإن سخطه يصير عظيمًا حتى

لا يتمالك نفسه ، عندها كان يأمر القارب ، وينتظر
أصحابه حتى يجيئوا ويطالبوا به ، لكنهم لم يفعلوا ذلك
عادة ..

وكان يحاول إبعاد الكسل عن بحارة القارب الأسير
بأن يرغمهم على الرياضة والسباحة ، وكان يسمى
الذبا بـ (المشى على اللوح الخشبي) ، وكان البحارة
جميعًا يحبون هذه الرياضة ..

فإذا تأخر أصحاب القارب كان (الأدميرال) يحرقه
حتى يضمن لهم مبلغ التأمين ..

أما (تشارلز هنرى توين) فعاش فى أواخر القرن
السابع عشر ، وكان مبشرًا دينيًا متحمسًا ، وقد قام
بهدياية ستة عشر ألف واحد من الجزر الجنوبية ،
وعلمهم أن ارتداء قلادة من أسنان الكلب حول العنق
منظار ليست ثيابًا كافية للنجاة إلى دار العبادة ..
وكان أتباعه يحبونه جدًا جدًا ، وحين انتهت جنازته
(وخرجوا جميعًا من المطعم) كانت الدموع فى
عيونهم ، وقالوا إنهم أحبوه جدًا جدًا ، وتمنوا لو كان
هناك المزيد منه ..

أما الصياد العظيم (توين) ، فأضاء منتصف القرن الثامن عشر ، وساعد الجنرال (برادوك) بكل قلبه كي يقاوم الطاغية (واشنطن) وكان هذا الجد هو الذي أطلق النار ١٧ مرة على ظهير (واشنطن) من وراء شجرة .. لكن القصة تقول إن الوعد كفاً عن إطلاق النار بعد الرصاصة السابعة عشرة ، لأنه افترض أن (واشنطن) تحميه السماء لأنها تدخره لهدف سام ، وهكذا لم يجرؤ على إطلاق المزيد .. وأنا أرى أن هذه القصص تخل بدقة التاريخ . إن ما قاله جدى هو :

- « لا جدوى (هيك) من هذا .. إن (واشنطن) (هيك) تمل يترنج .. ولا يقف فترة تسمح للإسنان بالتصويب عليه بالرصاص (هيك) .. »

لهذا كفاً عن المحاولة بعد سبع عشرة طلقة ، وكان هذا سلوكاً متعللاً جيداً بالاحترام ..

إن نبوءته قد تحققت على كل حال ..

في الواقع هناك فرع جانبي لشجرة أسرتى ، يمتاز أفراده بأنهم فى بحثهم عن الشهرة التى طالما ظمننا إليها ، اختاروا الطريق السهل بأن ذهبوا إلى السجن بدلا من أن يشنقوا ..

ليس من الصواب حين تكتب سيرة ذاتية أن تتبع أجدادك إلى فترة قريبة من فترتك .. الأفضل أن تتكلم بإبهام وغموض عن جدك الكبير ، ثم تتجاهل ذكر كل من جاء بعده حتى تصل لنفسك ، وهذا ما أفعله الآن ..

ولدت دون أسنان وفى هذا تفوق على الملك (ريتشارد الثالث) ، لكنى ولدت دون حذبة على ظهري أيضا ، وفى هذا تفوقت عليه ..

كان أهلى غير فقراء ، ولم يشتهروا بالأمانة الشديدة ..

سيبدو تاريخ حياتى وديغا جداً إذا ما قورن بأسلافي ، لهذا ربما كان من الحكمة ألا أكتبه إلى أن يتم شنقى ..

ولو أن باقى السير التى قرأتها حذت حذوى ، وتوقفت عند الأجداد حتى يحدث شيء كهذا للأحفاد ، لكان هذا شيئا مفيدا للجمهور الذى يقرأ ..

فما رأيك أنت ؟

(مارك توين)



وصية الثلاثين ألف دولار

هذه مجموعة من القصص وأشباه القصص ،
للساخر الأمريكي الأعظم الذي يصعب إسكاته :
(مارك توين) ..

إنها خليط من الأفكار الذكية ، والدعابة التي
تدفعك إلى القهقهة ، والمرارة التي تصل إلى حد
البكاء . إنها (الفكاهة الحزينة) أو (الحرز
الضاحك) أو صغ التعبيران ..

34